الفصل الأول

شريح القاضي الكندي

(التعريف به، وبيئاته، مكانته العلمية)

يتكون هذا الباب من ثلاثة مباحث:

❁ **المبحث الأول: التعريف بشريح القاضي، ويشتمل على:**

١- اسمه ٢- لقبه وكنيته ٣- نشأته (ميلاده وصباه)

٤- رحلاته ٥- حياته الأسرية ووفاته.

❁ **المبحث الثاني: بيئاته التي عاش فيها وأثرها في منهجه، ويشتمل على:**

١- بيئته الاجتماعية في كندة والكوفة وأثرها في منهجه.

٢- بيئته الاقتصادية في كندة والكوفة وأثرها في منهجه.

٣- بيئته السياسية في كندة والكوفة وأثرها في منهجه.

٤- بيئته الثقافية في كندة والكوفة وأثرها في منهجه.

❁ **المبحث الثالث: مكوناته الثقافية ومكانته العلمية: ويشتمل على:**

❁ **المطلب الأول: مكوناته الثقافية، ويشتمل على:**

(أ) شيوخه (ب) أقرانه (ج) تلاميذه

❁ **المطلب الثاني: مكانته العلمية: ويشتمل على:**

١- أقوال العلماء فيه. ٢- أقوالهم في اجتهاده.

٣- الاعتداد والاحتجاج بآرائه. ٤- توليه القضاء.

٥- تصنيفهم في أقضياته.

obeikandl.com

المبحث الأول
التعريف بشريح القاضي

- المطلب الأول: اسمه وضبطه.
- المطلب الثاني: لقبه وكنيته ونسبه.
- المطلب الثالث: نشأته: ميلاده وصباه.
- المطلب الرابع: رحلاته.
- المطلب الخامس: حياته الأسرية ووفاته.

obeikandl.com

المطلب الأول

"اسمه وضبطه"

١- اسمه [1]: شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر بن الرائش بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع بن كندة.

---

(1) مصادر ترجمة الإمام شريح القاضي كثيرة جدًّا، منها:

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (٢/١٤٨-١٤٩)، دار الكتب العلمية، ط١ سنة ١٩٩٥م -١٤١٥هـ.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤/١٠٠-١٠٦)، مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرناءوط، محمد نعيم، القرقسوسي، سنة ١٤١٣ هـ.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٥٦٢-٣/٢١، ٧٧، ٤٠١، ٤٢٠، ٤٨٣) دار صادر، سنة ١٩٧٩م -١٣٩٩م.
- تاريخ دمشق لابن عساكر (٤/١٥٧).
- تهذيب الكمال، للحافظ المزي (١٢/٤٣٥-٤٤٥)، مؤسسة الرسالة، ط١ سنة ١٩٨٨-١٤٠٨هـ.
- الثقات لابن حبان (٤/٣٥٢)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن - الهند سنة ١٩٧٨م-١٣٩٨هـ.
- مشاهير علماء الأمصار لابن حبان (رقم ٧٣٦)، عنى بتصحيحه م/ فلايشهمر، القاهرة، مطبعة لجنة النشر سنة ١٩٥٩م-١٣٩هـ.
- تاريخ الثقات، للعجلي (٢١٦-٢١٧. رقم ٦٦٠)، دار الكتب العلمية، سنة ١٩٨٤-١٤٠٥هـ.
- التاريخ الكبير، للبخاري (٤/٢٢٨-٢٢٩-رقم ٢٦١١)، دار الكتب العلمية.
- الثقات لابن شاهين (رقم ٥٣٣)، دار الكتب العلمية سنة ١٩٨٦م-١٤٠٦هـ.
- الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤/٣٣٢-٣٣٣ رقم ١٤٥٨)، دار الكتب العلمية مصورة على ط الأولى بحيدر آباد الدكن.
- تذكرة الحفاظ، للذهبي (١/رقم ٨٩)، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.

=

وشريح بن الحارث القاضي له شهرة واسعة في كتب التراجم يمكن إدراكها بالنظر في عدد المصنفات التي ترجمت له، هذا مع قلة روايته للحديث المرفوع، وهذا يعني أن شهرة شريح هذه كان لها سبب آخر غير روايته الحديث ألا وهو القضاء، والفترة الكبيرة التي لم يقض مثلها قاض في تاريخ القضاء الإسلامي.

وتكاد كتب التراجم على كثرتها تُجمع على اسم شريح بن الحارث[1]، ولكن هذا لم يمنع ذكرهم لاسم آخر بصيغ التمريض كـ(قيل، ويقال... إلخ)، هذا الاسم هو شريح بن شرحبيل أو ابن شراحيل، وهما واحد، ولم أر من جزم بتسمية شريح القاضي بشريح بن =

- تجريد أسماء الصحابة، للذهبي (١/رقم ٢٢٨٧)، شرف الدين الكتبي وأولاده بومباي - الهند، سنة ١٩٦٩م - ١٣٨٩هـ.
- حلية الأولياء، لأبي نعيم (٤/١٣٢-١٤١ رقم ٢٥٦)، دار الكتب العلمية ودار الفكر سنة ١٣٥٧هـ.
- جمهرة أنساب العرب لابن حزم (٤٢٥)، دار المعارف بمصر سنة ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
- أخبار القضاة لوكيع (٢/١٨٩ وما بعدها).
- الكنى والأسماء، الدولابي (١/١١٣) دار الكتب العلمية مصورة على ط١ بحيدر آباد سنة ١٣٢٢هـ والمصورة سنة ١٩٨٣م - ١٤٠٢هـ.
- الأسامي والكنى، لأبي أحمد الحاكم (ج١/ق٣٧ أ) مكتبة الغرباء الأثرية، سنة ١٩٩٤م-١٤١٤هـ.
- تهذيب الأسماء واللغات، للنووي، ق١ج١ص ٢٤٣-٢٤٤ رقم ٢٤٩)، دار الكتب العلمية مصورة على الطبعة المنيرية بدون تاريخ.
- المعارف لابن قتيبة (٤٣٣، ٤٣٤، ٥٨٥)، الهيئة القومية للكاتب، ط٦، ١٩٩٣م.

وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٤٦٠-٤٦٣)، دار صادر، بدون تاريخ.

(١) انظر: جميع مصادر الترجمة السابقة.

شرحبيل سوى الإمام يحيى بن معين[1] حيث قال في تاريخه: "القاضي شريح بن شرحبيل وهو أقدم من هؤلاء - يعنى شريح بن هانئ وشريح بن أرطأة- "[2].

وأرى أن أبا يوسف الفسوى[3] قد تابعه على ذلك في كتابه المعرفة والتاريخ[4].

والصحيح ما ذكره جمهور المترجمين لشريح القاضي، وهو أن اسمه شريح بن الحارث، ويستند هذا التصحيح لأمور أهمها:

أولا: أن خاتم شريح كان فيه شريح بن الحارث[5]، وهذا يعنى أنه كان يستخدمه في ختم رسائله، ولابد أن يكون الاسم المنقوش عليه اسمه.

ثانيًا: أن أصحاب كتب الأنساب عند ذكرهم لنسب شريح ذكروا أن اسم والده الحارث، وذلك عند عدِّهم لأبناء قيس بن الجهم جدِّ شريح[6].

---

(١) هو يحيى بن معين بن عون بن زياد المرى بالولاء، البغدادي أبو زكريا من أئمة الحديث ومؤرخي رجاله نعته الذهبي بسيد الحفاظ، وقال العسقلاني: إمام الجرح والتعديل ولد ١٥٨هـ، وتوفى سنة ٢٣٣هـ، انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ (١٦/٢)، وتهذيب التهذيب (٢٨٠/٣-٢٨٨) والوفيات (٢١٤/٢).

(٢) تاريخ ابن معين (٢/ ٢٥١).

(٣) هو يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوى أبو يوسف من كبار حفاظ الحديث من أهل "فسا" بإيران، عاش ثلاثين عامًا في طلب الحديث بعيدًا عن وطنه وتوفى سنة ٢٧٧هـ، انظر ترجمته في التذكرة (١٤٦/٢)، والتهذيب (٣٨٥/١١).

(٤) انظر المعرفة والتاريخ للفسوى (٣/ ٧٩).

(٥) انظر أخبار القضاة لوكيع (٢/ ١٩٩).

(٦) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم (٤٢٥).

ثالثًا: أن حفيدًا لشريح كان محدثًا، وذكر أهل الأسانيد والأنساب والأسماء أن اسمه علي بن عبد الله بن معاوية بن ميسرة بن شريح بن الحارث[1] فذكروا اسم جده الأعلى شريح بابن الحارث[2].

رابعًا: أن المتقدمين من العلماء ممن هم في طبقة الإمام يحيى بن معين أو أنزل منه طبقة من أمثال علي بن المديني، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام البخاري يسمون شريحًا بن الحارث[3].

خامسًا: أن العلماء الذين اهتموا بتحرير الأسماء وضبطها من أمثال الإمام النووي صححوا تسميته بـــ شريح بن الحارث[4] بل جزم الإمام ابن عبد البر بأنه "لا يصح إلا شريح بن الحارث"[5].

وبهذا يكون ما وقع للإمام يحيى بن معين في تسمية شريح متسامح فيه إذا وضعنا في اعتبارنا العدد الهائل من الأسماء التي يحفظها إمام الجرح والتعديل.

---

(١) هو علي بن عبد الله بن ميسرة بن شريح بن الحارث. روى عن أبيه، عن جده ميسرة، وروى عنه محمد بن خلف وكيع، ومحمد بن مخلد، انظر ترجمته في ميزان الاعتدال (٣/ ١٤٢).

(٢) انظر ميزان الاعتدال (٣/ ١٤٢)، وجمهرة أنساب العرب (٤٢٥)، والمؤتلف والمختلف (٣/ ١٢٧٦).

(٣) نقل هذا الاسم الإمام أحمد عن الشعبي في العلل (٢ /٢١)، ولو أنكره لتبين، وذكره الإمام البخاري في التاريخ الصغير (١/ ١٥٤)- (١/ ٢١٧)، وذكره على بن المديني في العلل.

(٤) انظر تهذيب الأسماء واللغات (١٨ / ٢٤٣).

(٥) الاستيعاب (٢/ ٢٥٨).

المطلب الثاني
لقبه وكنيته ونسبه

❁ **أولا: لقبه:** تعددت ألقاب شريح القاضي تعددًا يكشف عن المكانة التي تبوّأها شريح في عصره، سواء أكانت هذه المكانة وصفًا للمناصب التي تولاَّها أم كانت لعلمه وفقهه، ومن هذه الألقاب:

(أ) **القاضي**[1]: أجمع كل من ترجم لشريح بن الحارث على تلقيبه بـــ(القاضي)؛ وذلك لتميزه في علم القضاء وبراعته فيه ونزاهته حتى قال فيه الإمام علي ﷺ: "اذهب فأنت أقضى العرب"[2].

وقال فيه ابن الأثير: "ولما ولى القضاء سنة ثنتين وعشرين رُئِيَ منه أنه أعلم خلق بالقضاء"[3]، هذا بجانب طول المدة التي ظلَّ فيها في منصب القضاء، تلك المدة التي حسبها بعض المترجمين بستين سنة[4]، وحسبها آخرون بخمس وسبعين سنة[5]، وهى مدة لم يحدث أن ظلَّ قاض في منصب القضاء مثلها في تاريخ قضاة المسلمين[6].

---

(١) انظر جميع مصادر ترجمته.

(٢) انظر مثلا: المعرفة والتاريخ (٢/ ٥٨٨)، الجرح والتعديل (٤/ ٣٣٣)، حلية الأولياء (٤/ ١٣٤)، وفيات الأعيان (٢/ ٤٦٢)، أسد الغابة (٢/ ٥١٧)، طبقات الفقهاء للشيرازي (٨٠)، مرآة الجنان لليافعي (١/ ١٥٩)، تهذيب الكمال للمزي (١٢/ ٤٤).

(٣) أسد الغابة (٢/ ٥١٧).

(٤) منهم المزي في تهذيبه (١٢/ ٤٣٦)، والنووي في تهذيبه (١/ ١/ ٢٤٣) .

(٥) منهم ابن قتيبة في المعارف (٤٣٣)، واليافعي في مرآة الجنان (١٢/ ٤٣٦)، والنووي في تهذيبه (١/ ١/ ٢٤٣).

(٦) انظر تاريخ القضاء في الإسلام، محمود عرنوس (٣٠)، الكليات الأزهرية.

ولقد كانت براعة شريح القاضي في القضاء ونزاهته فيه سببًا في إطلاق لقب شريح القاضي على من يبرع في علم القضاء، فممن لُقِّبُوا بلقب "شريح القاضي"، القاضي عبد الرحمن بن الحسين بن عبد الله ابن النعماني النيلي العدل[1]، وقد لقبوه بشريح القاضي لإتقانه فن القضاء ووسائله تشبيهًا بالقاضي شريح.

(ب) قاضي المصرين[2]: ومن الألقاب التي لُقِّبَ بها شريح بن الحارث **(قاضي المصرين)**؛ وذلك لجمعه لقضاء الكوفة والبصرة في زمن تولِّي زياد عليهما، واختلفوا في المدة التي قضاها على كل منهما، فمن جعله قضى ستين سنة جعله قضى سنة واحدة على البصرة. ومنهم من جعله قضى بالكوفة ثلاثًا وخمسين سنة وقضى بالبصرة سبع سنين، ونسب الإمام النووي القول الثاني للإمام علي بن المديني[3].

قال أبو الشعثاء وذلك حين قال يمدح في قضائه بالبصرة يمدحه: "أتانا زياد بشريح فقضى فينا سنة، فما قضى فينا قبله ولا بعده"[4].

---

(١) كان يسكن بغداد وتولى القضاء ببلدة النِّيل وكان فيه فضل وتميز توفى ببغداد في سنة ٦٠٣هـ. انظر ترجمته في التكملة لوفيات النقلة (٢/ ١٣٠)، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٠هـ، ١٩٨١م- نزهة الألباب في الألقاب(١/ ٣٩٩)، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٥م.

(٢) انظر: نزهة الألباب في الألقاب (٢/ ٨١).

(٣) انظر: تهذيب الكمال (١٢/ ٤٣٦)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/١/٢٤٣).

(٤) انظر مثلا: المعرفة والتاريخ (٢/ ٥٨٧)، والجرح والتعديل (٤/ ٣٣٣) .

(ج) **الإمام**: هذا اللقب لقبه به الإمام ابن مفلح الحنبلي في كتابه الآداب الشرعية وذلك حين قال: لا وقاضى المصرين وهما الكوفة والبصرة، وهو شريح القاضي الإمام المشهور[1].

(د) **الفقيه**: وصدَّر الإمام الذهبي ترجمته في السير بهذا اللقب فقال: "هو الفقيه أبو أمية شريح بن الحارث..."[2]. وقد لُقِّبَ بهذا اللقب لعلمه بالفقه الذي ظهر من خلال قضائه واجتهاده في زمن عاش فيه صحابة رسول الله ﷺ.

وهذه الألقاب لاشك أنها تكشف عن مكانة الإمام شريح العلمية في عصره وبعد وفاته.

❁ **وقد وصف الإمام شريح بعدة أوصاف منها:**

١- القائف: وهو من يعرف الأمور بآثارها [3]والأنساب بالنظر في أعضاء الجسم وخاصة الأطراف.

٢- الكوسج: وهو ما لا شعر له على عارضيه [4].

٣- الأطلس: وهو من سقط شعر وجهه تشبيهًا له بالذئب [5].

والناظر في الألقاب التي لُقِّبَ بها شريح القاضي يراها كاشفة بصدق عن مكانة هذا الرجل في عصره.

---

(١) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح (٨١/١) عالم الكتب.
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٠٠) .
(٣) انظر: لسان العرب لابن منظور (٢٩٣/٩) قوف.
(٤) المرجع السابق (٣٥٢/٢) كسج.
(٥) السابق ذكره (١٢٤/٦٠) طلس.

❁ **ثانيًا: كنيته:** يجمع المترجمون لشريح على تكنيته بأبي أمية[1] وهذه هي الكنية المشهورة المعروفة له، وإذا ذكر المترجمون كنية أخرى له جعلوها بصيغة التمريض، هذا ما فعله الإمام أبو أحمد الحاكم[2] في كتابه الأسامي والكنى حيث قال: "أبو أمية ويُقال أبو عمرو شريح بن الحارث"[3]. والناظر في نص الإمام أبي أحمد يرى أنه يضعف هذه الكنية؛ وذلك لأنهم عندما ذكروا نسب شريح ذكروا له ولدين هما ميسرة وعبد الله[4]، ولم يذكر له المترجمون غيرهما من الأولاد.

وقيل فيه أيضًا: أبو عبد الرحمن[5]، والصواب الأول الذي عليه أجمع المترجمون له.

❁ **ثالثًا: نسبه:** وقع في نسب شريح بن الحارث القاضي اختلاف وصفه ابن خلكان بأنه "اختلاف كثير"[6].

❁ **ويمكن تلخيص هذا الاختلاف في طرق ثلاث، هي:**

١- من نسبه إلى كندة، وطريقها هكذا: شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر بن الرائش بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع بن كندة[1].

---

(١) انظر: جميع مصادر الترجمة .

(٢) هو: محمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق النيسابوري الكرابيسي المعروف بأبي أحمد الحاكم سمع الحديث وهو ابن نيف وعشرين سنة وتولى قضاء طوس وتوفى سنة ٣٧٨هـ، انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ (٢/٢١٥)

(٣) الأسامي والكنى لأبي أحمد الحاكم (١/ ٣٤٤).

(٤) انظر: جمهرة أنساب العرب (٤٢٥).

(٥) انظر: ثقات ابن حبان (٤/ ٣٥٢).

(٦) وفيات الأعيان ابن خلكان (٢/٤٦٠).

٢- من جعله حليفًا لبني الرائش بطن من بطون كندة[2].

٣- من جعله من أولاد الفرس الذين كانوا باليمن[3].

وأرى أن هذا الاختلاف يمكن حصره في طريقين هما:

١- كونه عربيًا منتسبًا لكندة.

٢- كونه غير عربي من أولاد الفرس، ولكنه حليف لبني الرائش وهذا الاحتمال يساعده كلام الحافظ ابن حجر في الإصابة حيث قال: "ويقال شريح بن الحارث بن شراحيل، من أولاد الفرس الذين كانوا باليمن، وكان حليف كندة"[4]؛ وذلك لأنهم لو قصدوا بالحليف أن يكون عربيًا وينتسب لقبيلة معينة ثم حالفت هذه القبيلة بني الرائش، لذكروا قبيلته الأصلية المحالفة لبني الرائش ولكنهم لما لم يذكروا انحصر الاحتمال في كونه فارسيًّا ولكنه سكن اليمن فحالف بني الرائش! وأما قولهم: حليف من بني الرائش. فلم أجد في أبناء الرائش بن معاوية المنتجع.

والراجح نسبة شريح بن الحارث لكندة، وتصحيح نسبه العربي وهذا الترجيح يستند لأمور، أهمها:

١- ما روى عن شريح بن الحارث نفسه عندما سئل: "ممن أنت؟ قال: من اليمن وعدادي في كندة"[5] فعاد الرجل الذي سأل شريحًا للشعبي فقال

=

(١) انظر: جميع مصادر ترجمته.

(٢) انظر: التاريخ الكبير للبخاري (٤/ ٢٢٨)، وثقات ابن حبان (٤/ ٣٥٢)، وتجريد أسماء الصحابة (١/ ٢٥٦).

(٣) تهذيب الكمال (١٢/ ٤٣٦).

(٤) الإصابة (٣/ ٣٣٤).

(٥) أخبار القضاة (٢/ ١٩٧).

له: دللتني على مولى، فقال له الشعبي: ما قال لك. فذكر قول شريح، فقال له: كلنا أنعم الله علينا بالإسلام، هذا صاحبك الذي تسأل عنه.

فهذا النص يوضح استغراب الشعبي من أن يكون شريح مولى، ثم وضح أن قول شريح هذا للرجل كان لتواضع شريح.

٢- ما رواه وكيع محمد بن خلف عن حفيد لحفيد لشريح عن نسبه فقال: علي بن عبد الله بن معاوية بن ميسرة بن شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر بن الرائش بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع بن كندة، وليس في الكوفة من بني الرائش غيره وسائرهم بحضرموت وهجر[1].

٣- كان شريح يعرف اليمانية وكان يتكلم ببعض كلماتها وهو قاض، ومنها كلمة لم تذكرها الروايات وهي تعني: ما شددت على لهوات خصم، ولا لقنته حجة، وهذا دليل قوى على يمنيته، ويضعف كونه من الأبناء -أي أبناء الفلاس الذين جاءوا لإخراج الحبش منها-.

٤- تصحيح علماء الأنساب هذه النسبة كابن الكلبي[2] الذي يتقدم كثيرا على أول من ذكر أن شريحا حليف، وهو الإمام البخاري في تاريخه الكبير وأرى أن الإمام البخاري ضعف نسب شريح لكندة بسبب رواية عليّ بن عبد الله بن معاوية بن ميسرة بن شريح القاضي -حفيد حفيد شريح القاضي- فكان تضعيف الإمام البخاري لعليّ بن عبد الله هذا سببا في تضعيف نسب شريح لكندة الذي وصل للإمام البخاري عن طريق

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (٢٣/ ٩)

(٢) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٤٦٠).

عليّ هذا، ولذا جعل الإمام البخاري شريحا حليفا لهم لمَّا حكم بالضعف على نسبه الأصيل لكندة.

و لم يكن ابن الكلبي فقط من نسب شريح لكندة،بل صحح هذه النسبة أيضا ابن حزم[1] وابن خلكان[2] وابن سعد[3] ووكيع[4] بذكره رواية على بن عبد الله، وتضعيف باقي الروايات بروايتها بصيغة التمريض.

ومن هذا نخلص إلى تصحيح نسبة شريح لبنى الرائش بطن من بطون كندة الكبار.

(١) انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ٤٢٥.
(٢) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٢ / ٤٦٠).
(٣) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٦/ ١٣١)، ط دار صادر، بيروت.
(٤) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/ ٢٠١) .

المطلب الثالث
"حياته ونشأته"

إن دراسة الإنتاج الفكري لمجتهد يحتاج لنظرة دقيقة في حياته في محاولة للكشف عن مراحل حياته وأثرها في فكره، وذلك لما لهذا الكشف من أثر كبير في تنوير البحث في هذا الإنتاج الفكري.

سأذكر في هذا المبحث صورة لحياة القاضي شريح، ذلك من خلال ما يتوفر للبحث من معلومات قليلة، أحاول البحث فيما وراءها.

وأرجع هذه القلة في المعلومات لما اتصفت به الكتابة التاريخية في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الأمة الإسلامية، فلم يكن المؤرخون في هذه المرحلة يهتمون برصد دقائق الحياة لمن يؤرخون ويترجمون لهم، مكتفين في ذلك بما يساعدهم على الحكم على المترجم أو المؤرخ له من حيث عدالته؛ لقبول روايته أوردِّها.

❁ **أولا: ميلاده:** خلت المصادر التي ترجمت لشريح القاضي من ذكر أي تفصيل عن ميلاده، سواء أكان ذلك فيما يخص سنة ميلاده، أم أكان فيما يخص الظروف التي صاحبت هذا الميلاد.

ولم يبق أمام البحث العلمي سوى محاولة العمل على وضع تاريخ تقريبي لميلاده، ليساعد في دراسة البيئات المختلفة لشريح، وذلك من خلال تحديد الميلاد لبداية الفترة الزمنية التي عاشها شريح.

ولم يبق أيضًا أمام البحث العلمي -لكي يصل لتاريخ تقريبي لميلاد شريح- إلا أن يثبت تاريخًا واحدًا، ثم يبنى عليه هذا التقريب ويزداد التحديد صعوبة إذار عرفنا أن كل التواريخ الخاصة بحياة شريح القاضي مختلف فيها، بدءًا بتاريخ توليه القضاء، وانتهاءً بتاريخ وفاته، واحتاجت

هذه الخلافات لترجيح بينها، وهذا ما سأحاول الوصول إليه في مواضعه مكتفيًا هنا بذكر النتائج فحسب.

فلو قلنا: إن شريحًا القاضي توفى سنة ثمان وسبعين من الهجرة عن عمر أقل تقدير له مائة وثماني سنين، وبهذا يكون شريح قد ولد سنة سبع عشرة قبل بعثة النبي ﷺ أي سنة خمسمائة وأربع وتسعين من ميلاد المسيح عليه السلام.

❁ **ثانيًا: نشأته:** لم تكشف مصادر ترجمة شريح القاضي عن تفاصيل نشأته وصباه وشبابه، بل كان نصيب نشأته من الاهتمام مثل نصيب الميلاد منه؛ وإذا لم يبق أمام البحث العلمي سوى استخدام الاستنباط باعتباره وسيلة يمكن من خلالها الكشف عن بعض الملامح لصورة نشأة شريح القاضي، وذلك بعد أن صار الاستنباط هو الطريق الوحيد مع قلة المعلومات، بل ندرتها في مجال الحديث عن النشأة وكل ما يتعلق بحياة شريح قبل توليه القضاء.

والواضح أن نشأة شريح في قبيلته كندة تتشابه في كثير من تفاصيلها مع حياة سائر بدو الجزيرة العربية من ناحية سيطرة النظام القبلي على القبيلة في جميع مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وغاية ما قد تتميز به هذه القبيلة عن غيرها من القبائل العربية، أن هذه القبيلة (كندة) كانت قبل الإسلام ذات صلات خاصة ببلاد ذات حضارات وثقافات كبرى مثل الفرس والروم، فقد اتصلوا بالفرس بعد قدومهم لطرد الأحباش، ثم بقاؤهم بعد ذلك واندماجهم مع أهل اليمن وقبائله، ذلك البقاء وتلك المخالطة اللذان جعلا بعض المؤرخين يحتملون أن يكون شريح منتسبًا لهؤلاء الفرس القادمين الذين سُمِّي أولادهم بعد ذلك بالأبناء.

واتصلوا بالروم عن طريق علاقة بعض حكامهم وملوكهم بالروم.

وهذا الاتصال الحضاري يمكن جعله سببًا في تميز قبيلة كندة في بعض مظاهر وأحوال وظروف المعيشة فيها، وكذلك الحياة الفكرية.

ولم تكشف المصادر عن نشأة شريح أي تفاصيل حتى نرى هذا الصمت يمتد ليشمل مرحلتي الصبا والشباب.

وأرى أن مرحلتي الشباب والشيخوخة[1] كانتا مرحلتين مؤثرتين بشدة في منهج شريح القاضي الفقهي، حيث تشترك فترة شباب شريح التي قضاها في كندة مع فترة شيخوخته التي قضاها بالمدينة لتكوِّنا مرحلة الإعداد لمنهج شريح القاضي الفقهي، والتي أراها بدأت حقيقة منذ إسلام شريح. وهذا ما نحاول التعرف عليه فيما يلي:

❁ **إسلام كندة وشريح**: أشرت من قبل أن لفظ (كندة) إذا أطلق قصد به (بني معاوية) بفرعيه: أبناء وليعة، وأبناء الحارث، وقد وجه إليهم الرسول ﷺ وهو مازال بمكة الدعوة للإسلام عند قدومهم في المواسم، ولكنهم أبوا، ثم كانت الدعوة الثانية لهم من خلال كتابه ﷺ لهم في السنة السابعة دعاهم فيه إلى الدخول في الإسلام، وذلك في جملة الكتب التي وجهها الرسول ﷺ لقبائل اليمن مثل بني كلال من حمير، ولكنَّ نصَّ الكتابين -لكندة وبني عبد كلال - مع تشابهما لم يوردهما أحد من المؤرخين، وإن نصَّ بعضهم أنه يشبه نصَّ كتاب الرسول ﷺ لكسرى[2].

وهذا الكتاب لا نعرف كيف وصل، ولا نعرف النتائج التي ترتبت عليه.

---

(١) لفظ الشيخ يطلق على الرجل بداية من سن اثنين وثلاثين عامًا.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج١، ص ٢٦٥).

ولكن لعل هذا الكتاب مع وجود معاذ بن جبل ﷺ باليمن في مكان قريب من كندة كانا سببين قويِّين دفعا ملك كندة الأشعث ابن قيس لقدوم المدينة لملاقاة النبي ﷺ في ستين راكبًا[1] لابسين أحسن الثياب فخرج النبي ﷺ للقائهم في حلة يمانية هو وأبو بكر وعمر ﷺ[2].

واستقبل النبي ﷺ وفد كندة أحسن استقبال، ولكن الواضح أنهم جاءوا وكانوا لم يسلموا بعد، يظهر ذلك مما ذكروه في حوارهم حول صدق نبوة محمد بن عبد الله ﷺ ثم أعلنوا إسلامهم[3] ثم نبههم النبي ﷺ لما يلبسونه من حرير وأنه حرام على الرجال فشقوه وألقوه[4].

وبإسلام الأشعث بن قيس ومن معه أصبحت كندة جزءًا من الدولة الإسلامية عليها والٍ من قبل رسول الله ﷺ هو زياد بن لبيد البياضي الأنصاري[5].

وإسلام ملك كندة الأشعث وتولية والٍ عليها لابد أنهما أثَّرَا بشدةٍ في إسلام أهل كندة، وخاصة أن المؤرخين ذكروا أن القبائل اليمانية لم تأت عليها سنة إحدى عشرة إلا وقد أسلمت عن بكرة أبيها[6].

---

(١) انظر: أسد الغابة لابن الأثير (ج١ / ١١٨).
(٢) انظر: كنز العمال للهندي (ج١.، ص ٦١٢).
(٣) انظر: شرح المواهب للزرقاني (ج٤، ص ٢٧).
(٤) انظر: سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (ج٧، ص ٤٠٩، ٤١).
(٥) انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ج٢، ص ٢٧٠.
(٦) انظر: اليمن في صدر الإسلام، د/ عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع، دار الفكر بيروت، ط ١، سنة ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م (ص ١٦٢).

ومن خلال هذا التحديد يمكن أن نحصر الفترة الزمنية التي أسلم فيها شريح وهى الفترة المحصورة بين وصول خطاب النبي ﷺ لكندة في السنة السابعة وبين إسلام ملكهم الأشعث بن قيس في السنة العاشرة.

فاحتمال أن يسلم شريح عقب خطاب النبي ﷺ لكندة وارد وإن كان هذا الاحتمال ضعيفًا، فلم يبق سوى أن يسلم بعد قدوم معاذ بن جبل لليمن أو بعد سفر وفد كندة مع الأشعث وعودته، والزمن بينهما قريب؛ لأن معاذًا على الراجح وصل لليمن في الشهرين الآخرين من السنة التاسعة للهجرة[1].

ويمكن من السنة العاشرة أن نضع تاريخًا لبداية مراحل المنهج الفقهي لشريح القاضي، فتكون مرحلة نشأته قد مرَّت بدون أي تأثير في المنهج لعدم وجود توجه لدى شريح في أثنائها للتفكير الإسلامي المنضبط بوسائل وغايات إسلامية محددة.

ولكن فترة الشباب كانت هي الفترة المثمرة من بين فترات التكوين الشخصي لشريح حيث بدأ فيها شريح يتوجه إلى التفكير الإسلامي، ومحاولة بذل الجهد في سبيل الوصول لحقائق هذا الدين الجديد الذي اعتنقه شريح ويرى أنه يصلح لضبط كل مناحي حياته، وبهذه الروح العالية التي كان يبدأ بها كل داخل في الإسلام، عاش شريح فترة شبابه وهو في منتصف عقده الرابع.

---

(١) انظر: اليمن في ظل الإسلام منذ فجره إلى قيام دولة بني رسول، د/ عصام الدين عبد الرءوف الفقي، دار الفكر العربي، ط ١، سنة ١٩٨٢م (ص٤٥).

وبهذه الروح بدأ مرحلة الإعداد للمنهج طلب العلم بالتعلم على يد معاذ بن جبل ﷺ.

وعلى هذه النقطة ألقى مزيدًا من الضوء على أن يأتي تفصيل الحديث في مسألة تعلم شريح من معاذ ﷺ عند حديثي عن شيوخ شريح.

❁ **حياة شريح بعد إسلامه في كندة:** إن حياة شريح بعد إسلامه لابد وأن تكون قد تغيرت في تعامله مع كل شيء سواء في قبيلته كندة أو الكون أو الطبيعة، ولم يكن هذا التغير الذي نتوقعه إلا بسبب ما علمه شريح من مبادئ الإسلام التي تصلح علاقة الإنسان مع كل شيء حوله.

ولقد كان لمعاذ بن جبل ﷺ عنه دور كبير في تعليم شريح على ما سأوضحه في حديثي عن شيوخ شريح.

ولقاء شريح بمعاذ ﷺ أمر متصور؛ وذلك لأن معاذًا نزل وأقام بين السكاسك (بني معاوية) والسكون (بني الأشرس)[1]، ومن المعروف أن شريحًا من فرع بني معاوية[2].

وليس من المستبعد أن يكون شريح أسلم على يد معاذ بن جبل وذلك قبيل قدوم الأشعث ابن قيس المدينة، فيكون بهذا ظل بكندة بعد إسلامه لمدة عامين على الأقل، أي من السنة العاشرة إلى السنة الثانية عشر–وهى السنة التي يُحتمل أن شريحًا قام فيها بأول رحلاته للمدينة.

وأرى أن هذه الفترة تعد من أذخر فترات حياة شريح بالأحداث إذ فيها يتلقى العلم من معلمه الأول معاذ بن جبل ﷺ، ثم فيها يتوفى الرسول ﷺ،

---

(١) انظر: اليمن في صدر الإسلام، د. الشجاع (ص١٦٢).

(٢) انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص٤٢٥).

وزواج أمه الذي يعلل به بعض المؤرخين -رحلته الأولى للمدينة، وقع في هذه الفترة أيضًا[1].

ولعل من أشد الأحداث أهمية أيضًا في هذه الفترة التي عاشها شريح في كندة بعد إسلامه، حركة الردة عن الإسلام التي تبعت وفاة النبي ﷺ التي سأذكر أنها أحد أسباب هجرة شريح للمدينة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وهذه الفترة المشحونة بالأحداث في حياة شريح، كان لأحداثها أثر كبير في منهجه، فتعلمه من معاذ رضي الله عنه بدأ به طور طلبه للعلم الذي له أثره البالغ في منهجه، وزواج أمه وحركة الردة كانا سببين في سفره للمدينة التي أكمل فيها شريح طلبة العلم، ليتبعه بعد ذلك بجانب التطبيق عند توليه القضاء بالكوفة ليكتمل بذلك المنهج.

ومما سبق يتضح ما للرحلات التي قام بها شريح من أهمية، فإلى أين كانت هذه الرحلات، وما أسبابها؟

---

(١) انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص٤٢٥).

المطلب الرابع
"رحلاته"

إن المصادر التي ترجمت لشريح القاضي لم تقم بحصر عدد الرحلات التي قام بها شريح، وبالتالي لم تذكر أسبابًا دقيقة لهذه الرحلات.

وسأحاول أن أعرض رحلات شريح محررًا عددها وأسبابها وأماكنها، مع محاولة التقريب لأزمنة قيامه بها.

عددها: لم تكن محاولة حصر عدد رحلات شريح أمرًا سهلا، بل كان يحتاج لكثير من الجهد، وذلك بتصفح ترجمة شريح في جميع المصادر بدقة شديدة، مع ملاحظة أي ذكر لمكان يحتمل أن شريحًا قد نزل فيه.

وكانت نتيجة هذا الاستقراء أن عدد رحلات شريح خمس رحلات.

الأولى: من كندة إلى المدينة.

الثانية: من المدينة إلى الكوفة.

الثالثة: من الكوفة إلى مكة.

الرابعة: إلى دمشـــــــق.

الخامسة: من الكوفة إلى البصرة.

وأشرت من قبل إلى دور هذه الرحلات في منهج شريح القاضي وهذه الرحلات التي أثرت في جانبي منهج شريح الفقهي: جانب المادة، وجانب التطبيق.

وهذا ما سأعرضه تفصيلا في حديثي عن كل رحلة على حدة.

أولا: رحلة شريح من كندة إلى المدينة: رحل شريح أول رحلة له من كندة قاصدًا المدينة المنورة مقر الخلافة، وذلك بعد وفاة النبي ﷺ، وفى خلافة أبى بكر الصديق رضي الله عنه[1].

ولقد رحل شريح إلى المدينة مسلمًا؛ وذلك يظهر من خلال عدة أمارات، منها:

١- أن المترجمين لشريح اختلفوا في صحبته، والذين رجحوا عدم صحة صحبته استدلوا بأنه نزل المدينة بعد وفاة النبي ﷺ ولو لم يكن مسلمًا قبل سفره للمدينة، لَمَا ورد أصلا احتمال كونه صحابيًّا؛ لأنهم يعرفون الصحابي بأنه من لقي النبي ﷺ مسلمًا، ومات على الإسلام[2]، والذين رجحوا عدم صحبته؛ رجحوا ذلك لعدم لقائه النبي ﷺ فقط، و لم ينفوا الصحبة عنه لعدم إسلامه في زمن حياة النبي ﷺ[3].

٢- أن المترجمين لشريح لم يذكروا قصة لإسلامه بالمدينة عندما وصل إليها في خلافة أبى بكر الصديق، بل ما ذكروه عن قدومه المدينة يشعر بأنه وصل إليها مسلمًا.

٣- ذكر المؤرخون أن القبائل اليمانية لم تمرَّ عليها سنة إحدى عشر إلا وكانت قد أسلمت عن بكرة أبيها[4]. أي عند وفاة النبي ﷺ أو قبل وفاته.

وهذا يعنى أن شريحًا اليمنى قد استقبل خلافة أبى بكر الصديق مسلمًا.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبى (ج ٤ / ١٠٠).

(٢) انظر: مقدمة ابن الصلاح لابن الصلاح (ص٤٨٦).

(٣) انظر: الإصابة لابن حجر (ج٣، ص ٣٣٤).

(٤) انظر: اليمن في ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بني رسول، د/ عصام الدين الفقي (ص٤٥).

وفائدة تحرير زمن إسلام شريح، أن نعرف هل لرحلته إلى المدينة دخل وتأثير في منهجه الفقهي؟ فبسفره للمدينة مسلمًا، تكون هذه الرحلة لها أثرها في منهجه.

والمترجمون لشريح يذكرون سببًا محددًا لقيام شريح برحلته من كندة إلى المدينة وإن ذكروه بصيغة التمريض، فقالوا: قيل: إن أمه تزوجت بعد أبيه، فاستحى من ذلك فرحل للمدينة في زمن خلافة أبي بكر الصديق[1].

ولا أرى هذا السبب كافيًا ليجعل شريحًا يرحل من كندة للمدينة؛ وذلك لأن الإسلام قد صحح كثيرًا من مفاهيم العرب قبل الإسلام وخاصة في مجال النكاح، فمن غير المتصور أن يحدث هذا الضيق الشديد لدى شريح بسبب زواج أمه مع ما غيَّره الإسلام بتخفيفه نسبة تحرج في مثل هذه الحالات.

ولذا أراه مقبولا أن نضم لهذا السبب أسبابًا أخرى تقوى خروج شريح من كندة إلى المدينة، ومن هذه الأسباب:

١- حركة الردة التي بدأت بعد وفاة النبي ﷺ واشتدت سطوتها في اليمن وما حولها، حتى دخل فيها الأشعث ملك كندة، ولكنه سرعان ما عاد للإيمان ثانية، ولكن هذا بلا شك سبب قوى يجعل شريحًا يفرُّ بدينه من براثن المرتدين بكندة[2].

---

(١) انظر: أخبار القضاة لوكيع (ج٢، ص ٢٥٣)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج٤ -ص١٠٠).

(٢) انظر: الكامل لابن الأثير، حوادث، سنة ١١هـ.

٢- تطلع النفوس دائمًا للمدينة بسبب ما فيها من علماء الصحابة، مما يجعل كلَّ محبٍّ للعلم يتمنى لو يرحل إليها لينهل من علم صحابة رسول الله ﷺ.

٣- كون المدينة مقر الخلافة يجعلها أحسن حالا اقتصاديًا من أي مكان يخضع للخلافة الإسلامية.

٤- دعوة الخليفة الراشد أبي بكر الصديق المسلمين للاشتراك في حركة الجهاد والفتوح الإسلامية، مما تسبب في توافد أعداد كثيرة من المسلمين على المدينة للاشتراك في حركة الجهاد وقتال المرتدين[1].

والذي أراه موافقًا لصفات شريح التي تكشف عن عقلية راجحة أن هذه الأسباب السابقة قد تضافرت جميعها لتجعل قرار شريح بالرحيل إلى المدينة قرارًا حتميًّا لابد من تنفيذه وهذا ما فعله شريح.

ثانيًا: رحلته من المدينة إلى الكوفة:

كانت الرحلة الثانية لشريح القاضي من المدينة إلى الكوفة؛ وذلك في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، وكانت رحلته هذه طويلة؛ لأن الخليفة عمر ﷺ أرسله إلى الكوفة قاضيًا عليها، فاستقر شريح هناك.

واختلفت الروايات في تاريخ بداية هذه الرحلة التي استمرت على أقل تقدير ستين سنة.

فقد ذكر الإمام الطبري أن بعضهم قال: إن شريحًا استقضاه عمر ﷺ سنة ثمان عشرة.

---

(١) انظر: اليمن في ظل الإسلام منذ فجره إلى قيام دولة بني رسول، د/ الفقي (ص٤٥).

وقال العلامة ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) عند ذكره لأحداث سنة ثمان عشرة: "وفيها استقضى عمر شريح بن الحارث الكندي على الكوفة"[1].

ولكنه عاد ليذكر في كتابه أسد الغابة أن شريحًا "لما ولى القضاء سنة ثنتين وعشرين رُئى منه أعلم الخلق بالقضاء"[2].

وأرى أنه في النص الثاني لم يقصد تحديد بداية تولى شريح للقضاء، وبداية رحلته للكوفة تبعًا لذلك، ولكنه تقرير ما رُئى من تفوق شريح في علم القضاء؛ وذلك لأن كتابه الذي يطلع بذكر التواريخ (الكامل) هو المعوَّل عليه في تحديد التواريخ وضبطها.

وأرى كذلك أن الإمام النووي شعر بذلك عند نقله لسنة تولى شريح للقضاء فقال: "وقالوا: ولى القضاء لعمر سنة ثنتين وعشرين". فلو كان الإمام النووي ثبت عنده ذلك لتبنى القول به، ولو ثبت عنه لنسبه لقائله لتقويته بهذه النسبة، ولكنه مَرَّض هذا القول.

والتحقيق أن شريحًا رحل للكوفة قاضيًا في سنة ثمان عشرة من الهجرة؛ وذلك لأن الإمام الطبري أول من ذكر توليه القضاء ذكر أنه كان في هذه السنة، والإمام الطبري معروف بتحريره للتواريخ ودقته في ضبطها.

ولأن المؤرخين الذين صنفوا على طريقة الترتيب على السنوات أمثال الطبري في تاريخه وابن الأثير في الكامل ذكروا أن عمال عمر بعد سنة

---

(١) انظر: الكامل لابن الأثير (٢ /٥٦٢).

(٢) انظر: أسد الغابة لابن الأثير (٢/ ٣٩٤).

ثمان عشرة التي ذكروا تولى شريح قضاء الكوفة فيها، ذكروا أن عمال عمر بعد هذه السنة كما كانوا في هذه السنة[1].

ولأن هذا التاريخ لتولى شريح قضاء الكوفة يتفق مع الراجح من تاريخ وفاته؛ لأن المؤرخين ذكروا أن شريحًا قضى في قضاء الكوفة ستين سنة، والراجح أنه توفى سنة ثمان وسبعين فكان الموافق لتاريخ وفاته ولمدة بقائه في قضاء الكوفة أن يكون بدأ القضاء على الكوفة في سنة ثمان عشرة.

والخلاصة أن هذه الرحلة تعدُّ أطول رحلات شريح القاضي؛ لاستمرارها ستين سنة، وتعدُّ كذلك أهم رحلة في حياته بالنسبة لهذه الدراسة؛ لأنها الرحلة التي ظهر فيها منهجه الفقهي من خلال عمله بالقضاء.

وأستطيع أن أسمى هذه الرحلة بأنها رحلة ظهور المنهج، كما كانت الرحلة السابقة هي رحلة الإعداد للمنهج؛ لأن نسبة تعلم شريح في هذه المرحلة تعدُّ أقل من نسبتها في فترتي بقائه في كندة حيث تعلمه من معاذ بن جبل، وبقائه بالمدينة حيث تعلمه من كبار الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا.

ولكن هذه الرحلة كانت بمثابة الحصاد الحقيقي لثمار الفترتين السابقتين، وإن لم تخل هذه الرحلة من مفاوضته للعلماء الموجودين بالكوفة.

ثالثًا: رحلته من الكوفة إلى مكة:

ورحلة شريح الثالثة كانت لحجِّ بيت الله الحرام الراجح أنها كانت في زمن خلافة عمر بن الخطاب ﷺ؛ لأن عمر بن الخطاب ﷺ لقي شريحًا

---

(١) انظر: تاريخ الطبري لابن جرير الطبري (١٠٣/٤)، والكامل لابن الأثير (٥٦٣/٢).

في الموسم فسأله عن كيف يقضى في أموال الناس؟ فقال شريح: بالبينات والشهود. فقال عمر: "أحرزت نفسك وأهلكت الناس"[1].

وهذا يدل على لقائهما في الحج، فتكون رحلة شريح للحج محصورة بين عامي ثمانية عشر، واثنين وعشرين، آخر عام حجَّ فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والواضح أن رحلات شريح لحج بيت الله الحرام قد تعددت، ولكن تبقى أن أول رحلة كانت في زمن عمر بن الخطاب، وذلك بعد تولى شريح القضاء؛ لأن شريحًا عند حجه تعرض لكثير من المواقف تدل على أنه كان أثناء حجه قاضيًا، منها:

تكاثر الناس وسؤالهم له أثناء السعي مما دفعه لإلقاء عمامته التي كانت ثيابًا مميزًا للقضاة في عصره- ثم إكماله السعي[2].

ومنها أيضًا أن أحد الطائفين سلَّم عليه ثم سأله عن شيء، فحكم له فيه، فأخبره أنه قد قضى عليه بخلافه، فنزع شريح يده من يده وقال له: إن كنت ترى أني لا أخطئ لبئس ما رأيت[3].

فكل هذا يدل على أن شريحًا حجَّ وهو قاضٍ، وكذلك يفيد صعوبة أن تطول هذه الرحلة ليستفيد شريح من فقهاء مكة؛ لانشغاله بأعمال القضاء بالكوفة؛ ولذا كان من الصعب أن تكون هذه الرحلة مؤثرة في منهجه، وإن كان يمكن عقلا أن يلتقي شريح ببعض علماء مكة في هذه

---

(١) انظر: شرح أدب القاضي للصدر الشهيد (١/ ٢٤١ - ٢٤٢).
(٢) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٣٨٣/٢).
(٣) انظر: المرجع السابق (٢ / ٣١٣).

الرحلة، أو علماء المسلمين من الأمصار المختلفة الذين جاءوا قاصدين بيت الله الحرام.

رابعًا: رحلته إلى دمشق:

وكانت رابع رحلات شريح القاضي إلى دمشق، والراجح أنها كانت من الكوفة إلى دمشق، وأنها كانت في زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان.

فقد ذكر الإمام الذهبي أنه قدم دمشق زمن معاوية بن أبي سفيان[1] ولكنه لم يبيِّن سبب قدومه.

وأرى أن سبب قدوم شريح للشام أنه ذهب ليتقاضى عند قاضيها، وهذا ما نستطيع استنتاجه من ما رواه وكيع محمد بن خلف في أخبار القضاة حيث قال: "تقدم شريح إلى قاض لمعاوية بالشام يطلب رجلا بحق له، فقال القاضي لشريح: أرى أن حقك هذا قديم. قال شريح: الحق أقدم منك ومنه. فقال: إني أظنك ظالمًا. قال: ما على ظنك رحلت من العراق. قال: ما أظنك تقول الحق. قال: لا إله إلا الله. فنمى الخبر إلى معاوية، فأمر أن يفرغ من أمره ورده إلى العراق"[2].

۞ ويستنبط من النص السابق:

١- أن سبب رحيل شريح من الكوفة إلى الشام كان بسبب هذه القضية ويظهر ذلك من قوله: "ما على ظنك رحلت من العراق".

٢- أن شريحًا لم يكن قاضيًا في هذا الوقت.

٣- أن هذا وقع في زمن معاوية بن أبي سفيان حال خلافته.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٠٤).

(٢) انظر: أخبار القضاء لوكيع (٢ /٢٢٢).

٤- أن أقوال شريح لقاضى الشام التي نمت للخليفة معاوية كانت سببًا في رد شريح للقضاء، وهذا يعنى أن هذه الرحلة كانت في أوائل خلافة معاوية؛ لأن شريحًا لم يترك القضاء في عهد معاوية إلا في أول خلافته.

٥- أن رحلة شريح هذه لم تدم طويلا؛ لأن الخليفة أمر بالفراغ من أمر شريح ورده قاضيًا على الكوفة؛ وهذا يعنى عدم بقائه مدة طويلة تسمح له بالاستفادة من فقهاء الشام؛ لتكون هذه الرحلة مؤثرة في منهجه.

خامسًا: رحلته من الكوفة إلى البصرة:

وكانت خامس رحلات شريح القاضي من الكوفة إلى البصرة، وذلك في زمن ولاية زياد عليهما، ويدل على ذلك قول أبي الشعثاء: "أتانا زياد بشريح فقضى فينا سنة فما بعده ولا قبله مثله"[1].

وقد اختلف العلماء في مدة هذه الرحلة فمنهم من جعلها سنة واحدة، كما يفهم من ظاهر قول أبي الشعثاء، ومنهم من جعلها سبع سنين.

وأرى أن رحلة شريح إلى البصرة كانت قصيرة، فلم تصل أخبار له في البصرة، وبجانب ما قاله أبو الشعثاء من أنه قضى فيهم سنة مما يرجح القول الأول.

وهذه الرحلة مع صغر مدتها، بجانب كونها كانت مخصصة لعمل القضاء تكون من الصعوبة بمكان أن توجد بها مساحة لالتقاء شريح بفقهاء وعلماء البصرة، مما يصعب معه تصور تأثير فترة وجوده بالبصرة في منهجه الفقهي.

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٢٩٧).

المطلب الخامس
"حياته الأسرية ووفاته"

هذا البحث عندما يرصد بعض التفاصيل لحياة شريح القاضي الأسرية فهو لا يرصد ذلك على سبيل الترف العلمي، بل يقصد به توضيح أحد العناصر المهمة للبيئة النفسية والذهنية التي ساعدت على تكوين منهج شريح الفقهي.

وكذلك يقصد الكشف عن الروح التي يشتمل عليها منهج شريح والتي ظهرت في تعامله مع أسرته، وذلك التعامل الكاشف عن ما يتبناه شريح من أراء فقهية دفعته لهذا التعامل.

ثم تأتي الوفاة لتحدد نهاية الرصد العلمي لما أنتجه الإمام شريح وهذا ما يكسب ذكر وفاته أهمية في هذا البحث.

وسأذكر في هذا المبحث مختصرًا عن هذين العنصرين.

❁ أولا: حياته الأسرية:

كانت حياة شريح القاضي الأسرية حياة هادئة مستقرة يرجع ذلك لحسن اختيار شريح لشريكة حياته، ولزواج شريح قصة مشهورة نترك حكاية تفاصيلها لشريح نفسه حيث يقول: "قلت لأخ لي في الله: أتدلني على المرأة أتزوجها؟ قال: نعم، أخت لي في الله، فإن كان لها بنت رضيتها لك: قال: فانطلق، فانطلقنا حتى دخلنا عليها، قالت: مرحبًا بأخي. قال: رحبت عليك. ثم قال لها: هل لك بنت؟ قالت: نعم، قال: أما والله لا أبالي أي بنت كانت إذا ربيتها، قالت: هي بنت خرجت من بطني وأدبتها. فقال شريح: أنكحتنيها؟ وقال صاحبه: أنكحته. فأرسلت مكانها إلى الناس فجاءوا فأنكحته. فلما كانت ليلة البناء قالت لابنها: سر مع

أختك حيث تراها، حيث بلغت الدار فلا ترجع عودك إلى بدئك، ولكن استقم كأنك عابر سبيل، فإنه قبيح بالرجل أن يزف أخته. فلما دخلت عليَّ قمت فصليت ركعتين فنظرت في أقفاي، فقلت: إحدى الدواهي، فصليت ركعتين فلما سلمت استقبلني ولائدها بملحفة تكاد تقوم قيامًا من الصبغ فلبستها، ثم جلست إلى جنبها فممدت يدي إليها، فحمدت الله وأثنت عليه، وشهدت بشهادة الحق ثم قالت: أما بعد، فإنه كان في قومك مناكح، وكان في قومي مثل ذلك، وإنك نكحتني بأمانة الله يقول ﷻ: ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ أحب أن تخبرني بكل شيء تحبه فأتبعه، وبكل شيء تكرهه فأجتنبه، أقول قولي هذا ويغفر الله لي ولك، فحمدت الله وأثنيت عليه وشهدت شهادة الحق ثم قلت أما بعد، فإنك قد تكلمت بكلام إن تتمي عليه يكن حظًّا لك ونصيبًا وإلا تتمي عليه يكن عليك حجة. نحن جميعًا فلا نفترق، ما سمعت من حسنة فأفشيها، وما سمعت من سيئة فادفنيها أقول قولي هذا ويغفر الله لي ولك. ثم مددت يدي فقالت: على رسلك، أخرى لم أذكرها في خطبتي ولم أسمعك ذكرتَها، هل تحب زيارة الأهل؟ فقال: ما أحب أن تملني أختاني، فأرسلت إلى أمها، عزمت عليك لا تأتيني إلى رأس الحول من هذه الليلة. قال: فبينا أنا ذات يوم راجعًا من عند الأمير إذا أنا بامرأة إلى جنبها تأمر وتنهى. قلت: من هذه؟ قالت: أمي، والله ما علمت أن لها أمًّا حتى قمت من مقامي هذا، قالت: كيف رأيت أهلك؟ قلت: قد أحسنتم الأدب وكفيتم الرياضة فبارك الله عليكم. قالت: وأنت؟ إن رأيت منها شيئًا فعليك بالسوط، فإن شر ما أدخل الرجل الورهاء المحمقة – وفي رواية:

إنه ليس من امرأة إلا ولها خناقان متى ما يسترخى أحدهما يحدث خلقًا غير خلقه..."[1].

وبفحص هذا التفصيل لقصة شريح التي صارت أنموذجًا يحتذى به في حسن تبعل الزوجة، نجدها تكشف بوضوح شكل الحياة الأسرية الهادئة المستقرة التي عاشها شريح القاضي مع زوجته زينب هذه، حتى نراه يذكر للشعبي أنه لم يغضب منها إلا مرة واحدة وكان فيها ظالمًا لها.

وهذا ما دعى شريحًا إلى استبعاد أن يضرب زوجته زينب فيقول في هذا شعرًا:

رأيت رجالا يضربون نساءهم يميني حين أضرب زينبا
فزينب بدر والنساء كواكب إذا طلعت لم يُبْدِ منهن كوكبا[2]

ويظهر من كل ما سبق حسن العشرة في بيت شريح، وهذه العشرة الحسنة أنتجت نتاجًا حسنًا، فقد ذكر المترجمون لشريح أنه ولد له ولدان عبد الله وميسرة، والظاهر من أخبارهما أن شريحًا أحسن تربيتهما، فقد ذكروا في ترجمة شريح أنه بعث في طلب ابن له فأتى به الرسول، فقال: أين أصبته؟ قال: يهارش بالكلاب، فقال: خذ بيده، واذهب به إلى المعلم وقل له:

ترك الصلاة لأكلب يسعى بها طلب الهراش مع الغواة النجس
فإذا أتاك فعضه بملامة وعظه عظة الأديب الأكيس
وإذا هممت بضربه فبدرة وإذا ضربت بها ثلاثًا فاحبس

---

(١) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/٢٠١، ٢٠٦، ٢٠٧).
(٢) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢ / ١٧٥).

فليأتينـــك عامـــدًا بـــصحيفة نكداء مثل صـــحيفة المـــتلمس
وأعلم بأنك ما فعلـــت فنفـــسه مهمـــا يجزعنـــا أعـــز الأنفـــس

وذكروا أنه كتب بهذه الأبيات مع الصبي إلى المعلم فضربه المعلم شيئًا فقال له شريح: كم فعلت؟ فقال: ثلاث لأمرك وثلاث لحمله صحيفة لا يدرى ما فيها"[1].

فهذا شريح يربى ابنه على الالتزام بطاعة الله، وعدم اللهو، ولم تتوقف تربيته وتوجيهه لأولاده عند الصغر، بل تجاوز ذلك إلى الشباب أيضًا، فهذا ابنه عبد الله يكلف إنسانًا في دين، ويسأل أباه في المسألة قائلا له: إن كان لي الحق خاصمت هؤلاء القوم، وإن كان لهم الحق لم أخاصمهم. فقال له شريح: تعال، خاصمهم فخاصمهم عبد الله فقضى شريح على ابنه عبد الله، وأمر أمين مجلس القضاء أن يذهب به إلى السجن، ثم عندما يأتي المساء يأمر الحارس أن يذهب له بطعام وفراش، وعندما يلقى ابنه فيعاتبه، فيرد عليه شريح مربيًّا: والله يا عبد الله، لأنت أحب إليَّ من ملئ الأرض منهم، ولكنه الحق يا بني[2].

وهكذا كانت أسرة شريح المكونة من: الأب شريح القاضي الذي لا يدع فرصة لإحقاق الحق إلا وقام بواجبها، والأم زينب ذات العقل الراجح، حسنة التبعل لزوجها. والأولاد: ميسرة وعبد الله اللذان طالما تلقيا من أبيهما شريح العلم والأخلاق.

---

(١) انظر: المرجع السابق (٢/ ٢٠٧ - ٢٠٨).
(٢) انظر: المرجع السابق (٢ /٢٥٣).

وواضح أن شريحًا كانت حياته الأسرية يضبطها منهجه الفقهي، فهذا ابنه يقضى عليه شريح بالسجن؛ لأنه يرى جواز السجن في الدين.

ولذا نستطيع أن نقول: لقد كانت حياة شريح انعكاسًا صادقًا لمنهجه الفقهي؛ لأن شريحًا لم يجعل منهجه الفقهي منفصلا عن حياته الأسرية الخاصة، وكأنه يحاول تطبيق قوله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1] وكان هذا الانطباق التام لمنهج شريح القاضي الفقهي على حياته الأسرية سببًا في ضم آثار ذكرت تفاصيل حياته الأسرية لمادة هذا البحث في منهج شريح الفقهي، لما تحتويه هذه الأخبار من فكر فقهي نابع من انطباق منهجه الفقهي على حياته الأسرية.

۞ ثانيًا: وفاته:

إن مجال البحث في فكر فقيه ما ينتهي بانتهاء حياة هذا الفقيه ولذا يهتم البحث العلمي بتحديد سني وفيات الفقهاء.

وإن وفاة شريح القاضي من المواضع التي كثر فيها الخلاف بشكل واضح، حتى وصل الفارق بين تحديد أحد المؤرخين وفاته وبين مؤرخ آخر إلى أكثر من عشرين عامًا[2].

ولذا احتاج تحديد سنة وفاة شريح لجمع القرائن الدالة على تحديد سنة لوفاته.

وقد ذكر الإمام المزيُّ أقوال العلماء في وفاة شريح فقال: "وقال أبو بكر بن أبي شيبة وأبو عبيد والهيثم بن عدى وأبو نعيم وغير واحد: مات

---

(١) سورة الأنعام: الآية: ١٦٢.

(٢) انظر: تهذيب الكمال للمزي (١٢/ ٤٤٤، ٤٤٥).

سنة ثمان وسبعين. زاد أبو نعيم زمن مصعب بن الزبير، وهو ابن مائة وثمان سنين بعدما عُزل من القضاء بسنتين؟

❁ وقال خليفة بن خياط، ومحمد بن عبد الله بن نمير وغير واحد: **مات سنة ثمانين.**

❁ وقال المدائني: **مات سنة اثنتين وثمانين.**

❁ وقال خليفة في موضع آخر: **مات سنة سبع وثمانين.**

❁ وقال أبو نعيم في رواية أخرى: **مات سنة ثلاث وتسعين.**

❁ وفى رواية أخرى: **سنة ست وتسعين.**

وقال عليُّ بن عبدالله التميمى: مات سنة سبع وتسعين، قال: ويقال: سنة تسع وتسعين"[1].

ونص الإمام المزى يكشف عن شدة الخلاف في سنة وفاة شريح ذلك الخلاف الذي يمكن إرجاعه لسببين هما:

١- أن سنى الوفاة المذكورة لعلها ذكرت لا عن نقل، بل عن حساب لعمر شريح من خلال محاولة توفيق تاريخ سنة الوفاة مع المذكور من عمر عاشه شريح القاضي، فمن قال مائة سنة حسب سنة الوفاة على هذا الأساس، ومن زاد حسبها من خلال هذه الزيادة.

٢- حسابهم سنة وفاته من خلال محاولتهم التوفيق بينها وبين ما ذكر من فترة تولى شريح للقضاء، فمن جعله قضى ستين عامًا أرَّخ لوفاته بسنة أقرب زمنًا ممن جعله قضى في عمله كقاض خمسًا وسبعين سنة.

---

(١) انظر: تهذيب الكمال للمزي (١٢/ ٤٤٤، ٤٤٥).

والدافع للتفكير في هذين السببين واعتبارهما مؤثرين في اختلاف العلماء في سنة وفاته، أنه يصعب أن يُذكر عن عالم واحد أكثر من رواية في سنة وفاته، مع صعوبة أن تتعدد الروايات في سنة وفاته بهذه الكثرة، فقد نقل عن خليفة بن خياط في تاريخه ثلاثة تواريخ لسنة وفاة شريح، واختلفت الأقوال في سنة وفاة شريح على ثمانية أقوال.

ولذا كانت عملية الترجيح أمرًا ملحًّا؛ لأن بضبطها يمكن ضبط تاريخ الميلاد وغير ذلك من تواريخ خاصة بعمر شريح عند قيامه ببعض رحلاته.

الأقرب للصواب أن شريحًا توفى سنة ثمان وسبعين من الهجرة، والدافع لهذا الترجيح عدة أمور أهمها:

١- أن المتقدمين من العلماء المهتمين بسنى الوفاة وتراجم الرجال ذكروا أن شريحًا توفى في هذه السنة ومن هؤلاء أبو عبيد القاسم بن سلام، والهيثم بن عدى، وأبو نعيم، وأبو بكر بن أبى شيبة[1] ولكل واحد منهم اهتمام خاص بالآثار والرواية عن التابعين، فالهيثم معروف باهتمامه بالرواية التاريخية، وأبو نعيم له مصنف مستقل في معرفة الصحابة، وذكر ترجمة مفصلة لشريح في الحلية، وأبو بكر بن أبى شيبة كان معروفًا باهتمامه الشديد بآثار الصحابة والتابعين وضبط التواريخ الخاصة بهم.

(١) انظر: تهذيب الكمال للمزى (١٢ / ٤٤٤، ٤٤٥).

٢- أن العلماء المهتمين بتحرير التواريخ وضبطها اختاروا هذا التاريخ، فمن هؤلاء الإمام الذهبي في كتبه "السير"[1]، و"العبر"[2]، و"تذكرة الحفاظ"[3]، و"الكاشف"[4]، والاهتمام الخاص بكلام الإمام الذهبي؛ لأنه صنف كتابًا في التاريخ رتبه على سنى الأحداث؛ ولذا فهو مظنة ضبطها.

٣- أن سني الوفيات الأخرى بعضها يمكن أن يحدث فيه تحريف إن كان مكتوبًا بالأرقام مثل (٨٧) تتحرف من (٧٨) وهو التاريخ الصحيح.

٤- أن هناك أحداثًا هامة وقعت بعد هذه السنة ولم يكن لشريح ذكر فيها، كثورة ابن الأشعث ٨١هـ، ولم يكن فيها شريح؛ لأن هذه الثورة خرج فيها عدد كبير من علماء الكوفة وقراؤها حتى كان في هذه الثورة وجيشها كتيبة بأكملها من القراء، ولا أظن شريحًا مع ميله لعدم الاشتراك في الحياة السياسية لا يشترك في ثورة قام بها العلماء، ولو لم يفعل لوقع في لوم شديد منهم، وهذا كله لم يحدث؛ ولذا من الراجح أن شريحًا لم يكن حيًّا لهذا الوقت.

---

(١) انظر: السير (١٠٨/٤).
(٢) انظر: العبر (٦٦/١).
(٣) انظر: تذكرة الحفاظ (٥٩/١).
(٤) انظر: الكاشف (٨/٢).

obeikandl.com

المبحث الثاني
البيئات التي عاش فيها شريح القاضي

❁ **ويشتمل على أربعة مطالب:**

❁ **المطلب الأول: البيئة الاجتماعية التي عاش فيها شريح القاضي:**

ويشتمل على:

(١) بيئته الاجتماعية في كندة.

(٢) بيئته الاجتماعية في الكوفة.

(٣) أثر بيئته الاجتماعية في منهجه.

❁ **المطلب الثاني: البيئة الاقتصادية التي عاش فيها القاضي وأثرها في منهجه:**

ويشتمل على:

(١) بيئته الاقتصادية في كندة.

(٢) بيئته الاقتصادية في الكوفة.

(٣) أثر بيئته الاقتصادية في منهجه.

❁ **المطلب الثالث: البيئة السياسية التي عاش فيها شريح القاضي وأثرها في منهجه:**

ويشتمل على:

(١) بيئته السياسية في كندة.

(٢) بيئته السياسية في الكوفة.

(٣) أثر بيئته السياسية في منهجه.

❁ **المطلب الرابع: البيئة الثقافية التي عاش فيها شريح القاضي وأثرها في منهجه:**

ويشتمل على:

(١) بيئته الثقافية في كندة.

(٢) بيئته الثقافية في الكوفة.

(٣) أثر بيئته الثقافية في منهجه.

obeikandl.com

تمهيد

١- أهمية دراسة بيئات شريح التي عاش فيها:

إنَّ الدراسات القائمة على التحليل والتركيب التي اصطلح على تسميتها بدراسة المناهج تضع في اعتبارها دائمًا أنَّ موضوع دراستها -وهو المناهج- لا ينشأ بعيدًا عن بيئته، بل ينشأ متفاعلا معها: يؤثر فيها، ويتأثر بها.

ولذا أصبح عدم إغفال عنصر البيئة من مبادئ هذا النوع من الدراسات المنهجية، فصارت تفرد جزءًا من بحثها لتناول البيئة التي تكونَّ فيها هذا المنهج.

ولكن إذا أمعن الدارس النظر في كثير من هذه الدراسات يجد هذه الأجزاء المخصصة لدراسة البيئة التي تكوَّن فيها المنهج موضوع الدراسة، صارت غير منسجمة مع أصول البحث العلمي التي تقتضي عدم إضافة مبحث أو دراسة في بحث علمي لا يحتاج إليه البحث، أو لا يساعد البحث على فتح آفاق جديدة له، وتقضي هذه الأصول الاستفادة التامة من كل معلومة يتضمنها هذا البحث.

۞ نعم أصبحت هذه الأجزاء غير منسجمة؛ وذلك يرجع لأمرين:

١- عدم إدراك الباحثين لأهمية هذا النوع من الدراسات لأبحاث دراسة المناهج والتكامل معها على أنها عادة جرى عليها العمل في البحث العلمي فحسب.

٢- كتابة هذه الدراسات بطريقة لا تتناسب مع العلم الذي ينتسب إليه المنهج موضوع الدراسة.

ولقد حاولت تجنب هذه الظاهرة بمحاولة الإجابة على سؤال مؤداه: ما فائدة دراسة البيئة التي ظهر فيها منهج شريح القاضي؟

تتلخص الإجابة في أمور هي:

أولا: أن بيئة شريح هي التي أنضجت ثمار شريح كقاضٍ، فبيئته بعلاقات أفرادها، ومنافساتهم في ظلِّ حركة الحياة الدائمة هي التي أنتجت لنا قضاء شريح، فكان بمثابة التنظيم والضبط لعلاقات أفراد مجتمعة فيما بينهم من ارتباطات، فلابد أنه نظر في بيئته ليحاول رفع أسباب تكرر بعض الحوادث فيها كما حدث في مسألة إحداثه بعض الإجراءات القضائية المذكورة في موضعها وهذه الإجابة تكشف عن أثر البيئة الاجتماعية في منهجه، ودور منهجه في مجتمعه.

ثانيًا: أن شريحًا القاضي كان عمله دائمًا محكه الأساسي التنازع وأعظم ما يتنازع فيه الناس هو المال؛ ولذا كان للحياة الاقتصادية بلاشك أثر في منهجه الذي لم يكن في معزل عن حياته الاقتصادية، بل كان متفاعلا معها أيما تفاعل حتى نراه يقرر سنة الغزَّالين فيما بينهم؛ وذلك لإدراكه أثر الحالة الاقتصادية في الحكم، وذلك الإدراك هو المؤثر في منهجه.

هذا بجانب تأثير الحياة الاقتصادية عليه في نشأته سواء بالاستقرار على نفسيته وترك مساحة واسعة له للتفكير والتدبر أو بالاضطراب والأنشغال بهموم جمع المال لسد الرمق.

ثالثًا: هذا بجانب التطورات السياسية المتلاحقة بالكوفة، وهي التي سيركز عليها فهي مؤثرة بلاشك في فكر وعقلية كل من عاشوا في بيئة الكوفة السياسية، وهذا بجانب بيئة القاضي شريح في موطنه الأصلي الكوفي.

رابعًا: ولابد أن الثقافة بكل ألوانها يكون لها أيضًا دور كبير في منهجه؛ وذلك لما ترتبط به الثقافة من عادات تكسبها لصاحبها أو تكشف عنها.

وبهذا يكون مزيج بيئات شريح الاجتماعية والاقتصاد والسياسية والثقافية، له أثر كبير في تكوين منهجه؛ وإن كان البحث في أثر هذه البيئات في منهجه يفتقر لبحث مستقل يدرس فيه الأثر المتبادل بين بيئات شريح ومنهجه، ومع ذلك سأحاول عرض نبذة مختصرة عن هذه المسألة بما يتناسب مع انتساب هذا البحث لقسم الدراسات الفقهية والأصولية.

وإن أنسى لا أنسى أن أذكر أن التركيز سيكون على عرض بيئات شريح في الكوفة؛ وذلك يرجع لأمرين، هما:

١- قلة ما وصل إلينا من معلومات نستطيع من خلالها رسم البيئات التي عاش فيها شريح في كندة موطن نشأته؛ ولذا سنعرض البيئة في كندة عرضًا عامًا، يتناسب مع التعميم المسيطر على المادة العلمية الخاصة بكندة.

٢- أن منهج شريح الفقهي لم يظهر إلا بعد توليه القضاء في الكوفة، وهذا يقتضي التركيز على البيئات المؤثرة بشدة على موضوع الدراسة.

وسأكتفي في عرضي للبيئات التي عاش فيها بعرض بيئات مكانين هما: كِندة (موطنه الأصلي) الذي عاش فيها -على أقل تقدير- ثلاثين عامًا، والكوفة (مكان عمله بالقضاء) الذي قضى فيه أكثر من ستين عامًا.

"مدخل: بين يدى البيئات"

۞ التعريف بـــ"كندة " و "الكوفة ":

(أ) كندة:

كِندة -بكسر الكاف- قبيلة عربية تنتسب إلى ثور بن عمير الذي يرتفع نسبه إلى كهلان بن سبأ بن يشجب بن زيد بن يعرب بن قحطان، وكندة لقب ثور بن عمير[1]، ويقال: إنه سُمِّيَ كندة؛ لأنه كند أباه أي عقه. وتعرف هذه القبيلة بكندة الملوك؛ لأن المُلك كان لهم على بادية الحجاز من بنى عدنان[2].

وهى تعتبر من قبائل كهلان الكبيرة، وكانت لها فروع في الحيرة، ولكن فروعهم التي هناك نزحت بعد ذلك إلى حضرموت - ومن بطونهم العظيمة الصَّدف، وتجيب، والعباد، وبنو معاوية السكاسك والسكون[3].

مع الأخذ في الاعتبار أن أبناء كندة يتفرعون لفرعين:

بنو معاوية، وبنو الأشرس. فأما بنو معاوية -وهم الذين ينتسب لهم شريح بن الحارث- فإذا أطلق اسم كندة فهم المقصودون، أما بنو الأشرس فيذكرون باسم قبائل كالصدف وتجيب والسكون[4].

---

(١) التنبيه والإشراف للمسعودي (ص ٢٨٩)، تاريخ ابن خلدون (٢/ ٥٣٦).

(٢) تاريخ ابن خلدون (١ / ٥٣٦).

(٣) صفة جزيرة العرب للهمداني (ص١٦٨)، معجم البلدان للحموي (٣/٢٢٩)، جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص٤٢٩).

(٤) انظر: تاريخ حضرموت، صالح الحامد العلوي، مكتبة الإرشاد، جدة، سنة١٩٦٨ (ج١ -ص٢١).

وكانت تسكن حضرموت في مكان مرتفع منه كأنه سراة، وتصب أوديته في حضرموت. فأعلاهما الحصون وأسفلهما الزرع والنخل. وهى بهذا تسكن أعالى حضرموت أي شمال الإقليم وشمال غربه وتجاور قبيلة حضرموت التي تسكن أسفلها مطلة على البحر، وكانت لكندة منازل في أواسط بلاد حضرموت[1].

وكانت كندة -وهم بنو معاوية خاصة- فيهم ملوك متوجون بلغوا سبعين ملكًا، أولهم " ثور"، و "مرتع" أبناء عمرو بن معاوية، وآخرهم الأشعث بن قيس الذي عاصر ظهور الإسلام، ثم أسلم فيما بعد[2].

والفترة التي نهتم بها من تاريخ كندة هي الفترة المحصورة بين حكم ملكهم قيس بن معدى كرب وإسلام ملكهم الأشعث بن قيس.

(ب) الكوفة:

هى مدينة اختطها سعد بن أبى وقاص، لم تكن معروفة بهذا الاسم قبل تمصيرها، بل كان موضعها خاليًا من السكان يقع على الضفة الغربية للفرات الأوسط إلى الشرق من مدينة الحيرة، وكان بينها وبين النهر لسان من الرمل يقترب عموديًّا من الفرات يسمى المطاط[3]. وكانت توجد على حافة البادية مسلحة تحرس جسر الزوارق المنصوب على الفرات الذي يفضى إلى الطريق المؤدى إلى المدائن[4]. وفى هذا السهل الخصيب

---

(١) انظر: اليمن في صدر الإسلام، د/ عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع، دار الفكر بيروت، ط ١، سنة ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م (ص٤٢).

(٢) انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص ٤٢٨).

(٣) انظر: فتوح البلدان، البلاذري (ص ٢٧٧).

(٤) انظر: خطط الكوفة، ماسنيون (ص٦)، ترجمة تقي المصعبي - صيدا ١٩٤٦.

المحصور بين الفرات شرقًا والبادية الواسعة المطلة على مشارف الشام واليمن غربًا بنيت هذه المدينة التي اتخذت اسم الكوفة بعد تمصيرها بعد فتح المسلمين للقسطنطينية[1].

وقد اختلف في سبب تسميتها الكوفة، هل لأن أرضها رملية تخالطها الحصى، أم لقول سعد لجنوده تكوفوا أي تجمعوا في هذا الموضع، أم نسبة لجبل صغير بها يسمى كوفان وعليه اختطت ؟ وغير ذلك من الأقوال[2].

وقد تم تخطيطها بعد البصرة بعامين ونزلها المسلمون في السنة السابعة عشرة للهجرة[3]، (سنة ٦٣٨م) بعد ثلاث سنوات وثمانية أشهر من خلافة عمر بن الخطاب ﷺ[4]، وقد اختارها سعد بعد أمر عمر ابن الخطاب ﷺ له بأن يختار منزلا بريًّا وبحريًّا لا يفصل بينه وبين المسلمين بحر ولا جسر[5].

---

(١) انظر الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري، د/ محمد حسين الزبيدي، جامعة بغداد، ١٩٧٠م (ص ٢١).

(٢) انظر: فتوح البلدان للبلاذري (ص ٣٧٥)، تاريخ الطبري (ج٣، ص ١٤٤، ١٤٦)- معجم البلدان، ياقوت الحموي (ج٧، ص ٢٩٦)- معجم ما استعجم، البكري (ج٤، ١٤٢).

(٣) انظر:الكامل في التاريخ، ابن الأثير، (ص ٢٩٧، ج ٢)، وفتوح البلدان، البلاذري (ص ٢٧٤).

(٤) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (ج٢، ص ٣٦٧، ٣٦٨)، وتاريخ ابن خلدون، ابن خلدون (ج٢، ص ٣٤١).

(٥) انظر: مجموعة الوثائق السياسية لمحمد حميد الله، ص ٢٣٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير (ج٢، ص٤١١).

وقد اختارها سعد لارتفاع أرضها عن المباق وانحدارها عن الفلاة وبنيت فيها أشعاب حسنة وذلك مع صفاء جوها وعذوبة مناخها[1].

ويتضح أن بناء الكوفة قصد به الإمام عمر ﷺ أمرين، هما: أمر عسكري: هو اتخاذ الكوفة كنقطة ارتكاز وقاعدة حربية يستريح فيها الجند من عناء الفتوحات وتكون حامية لثغور المسلمين، هذا بجانب استخدامها في تموين ساحات القتال بالجند والمؤن[2]. وأمر تنظيمي: وهو أن يحافظ على نشاط الجند الذين لو انتقلوا من مناخ الكوفة بعد القتال للبادية لساءت صحتهم وعلّت أجسامهم[3].

واختط الكوفة، فبنى المسجد الجامع أولا، ثم اختطت حوله الدور ودار الإمارة، والأحياء، وقسمت الكوفة لسبع مناطق عسكرية سميت الأسباع[4].

وقسمت فيها الشوارع فجعل فيها خمسة عشر منهجًا، وزعت على المناهج القبائل المشتركة في الفتوحات، ففي الأول وفى الثاني قبيلتا سليم وثقيف، والثالث: همدان، والرابع: بجيلة، والخامس: تيم اللات، وتغلب، والسادس: لبنى أسد، والسابع: لبنى أسد والنخع، والثامن: لكندة والنخع، والتاسع: لكندة والنخع، والعاشر: للأنصار ومزينة، والحادي عشر: لتيم ومحارب، والثاني عشر:

---

(١) انظر: فتوح البلدان، البلاذري (ص ٢٧٧).

(٢) انظر: حياة الشعر في الكوفة، يوسف خليف، ص ٤، طبقات ابن سعد لابن سعد (ج٦، ص١).

(٣) انظر: الحياة الاجتماعية... ، محمد حسين الزبيدي (ص٢٥).

(٤) انظر: خطط الكوفة، ماسنيون (ص٩).

لأسد وعامر، والثالث عشر: لبجلة (من غطفان)، وبجلة (بني قيس)، والرابع عشر: لجديلة وأخلاط، والخامس عشر: لجهينة وأخلاط[1].

ويضاف لذلك شوارع عامة تسمى بـــ(السكك)[2].

والذي يهمنا في دراسة تاريخ الكوفة الفترة المحصورة بين السنة الثامنة عشرة للهجرة إلى وفاة شريح في السنة الثامنة والسبعين من الهجرة.

(١) انظر: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة، لمحمد حسين الزبيدي (ص٣٠-٣١).
(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

obeikandl.com

المطلب الأول

البيئة الاجتماعية التي عاش فيها شريح القاضي

❁ المسألة الأولى: البيئة الاجتماعية التي عاش فيها في كندة:

إن مصادر ترجمة شريح لم تذكر أي تفصيل عن بيئة شريح الاجتماعية في مرحلتي النشأة والشباب اللتين عاش فيهما في كِندة؛ ولكن سنذكر -كما سبق الإشارة- البيئة الاجتماعية لكِندة في الفترة التي يحتمل أن يكون شريح نشأ فيها وتأثر بها.

تذكر المصادر أن " الكنديين لم تكن لهم حضارة على مستوى حضارة الغساسنة أو المناذرة، إذ أنهم احتفظوا بالنظم البدوية، ولم تكن لهم حواضر ثابتة، وإنما كانوا ينتقلون بين الجنوب والشمال، وكان ملوكهم في أيام الحرب محاربين مهرة يعتمدون في جيوشهم على من كانوا يستنفرونه من القبائل الخاضعة لهم، بالإضافة إلى شواذ العرب أو الصنائع المرتزقة الذين كانوا يستأجرون لنصرهم، أما في السلم فكانوا يعيشون في قباب من النسيج أو فساطيط على عادة أهل البدو، ومنهم من كان يقضي وقته بين صيد الوحوش، ولكن حدث قبيل الإسلام أن صار للكنديين مراكز عمرانية يسكنون فيها مثل دومة الجندل حيث شيدوا فيها القصور من بينها قصر مارد في دومة الجندل. وكانوا ينعمون في هذه القصور بمثل ما ينعم به أهل الحضر من طعام وشراب ولباس متأثرين في ذلك بالبيزنطيين والساسانين"[1].

---

(١) انظر: تاريخ العرب في مصر الجاهلية، ص ٣٣٢، وهامشها بتصرف.

فالناظر في وصف هذه البيئة يجد المصادر تنص على محافظة الكنديين على النظم الاجتماعية للبيئة البدوية، ولكنى أرى أن هذا قد تغير قبيل الإسلام بسبب اتصال الكنديين بالروم والساسانيين حيث كانت هناك علاقات تربطهم. وهذا الاتصال يؤثر بلا شك في عادات واجتماعيات البدو الذين يرون من ألوان التمدن في هذه الحواضر ما يجعلهم يتخلون مع شيء من التحرج من عاداتهم في المسكن والطعام والشراب.

❁ المسألة الثانية: البيئة الاجتماعية التي عاش فيها في الكوفة:

الكوفة مدينة أنشأها المسلمون لتكون مركزًا وقاعدة لعمليات الفتوح الإسلامية التي كثرت في كل جهات العالم.

ولهذا السبب كانت الكوفة من ناحية التركيبة السكانية تشتمل على عناصر متعددة؛ وذلك لكون سكان المدينة الجديدة من المحاربين الذين خرجوا للجهاد في سبيل اللّه؛ ولذا جمعت الكوفة هذه العناصر وتكون منها مزيج اجتماعي يشتمل على لغات وطبائع وثقافات مختلفة.

وهذا بجانب عناصر أخرى من غير المسلمين، فاجتمع بالكوفة ستة عناصر كوَّنوا مجتمع الكوفة، وكان لكل عنصر حياته الاجتماعية التي يعيشها، وهذه العناصر هي:

١- العرب: كان العرب أول وأهم العناصر التي نزلت الكوفة بعد إنشائها، فنزل أشراف العرب والمهاجرون والأنصار الكوفة حتى قال ابن سعد: "لقد نزل الكوفة سبعون رجلا ممن شهدوا بدرًا وثلاثمائة من

أصحاب الشجرة، فكانوا خلاصة المهاجرين والأنصار الذين لهم السبق في الإسلام"[1].

ونزل من أشراف العرب مثل آل زرارة وآل زيد وآل قيس وغيرهم، ومن قبائل اليمن القحطانية نزل اثنا عشر ألف شخص من قبائل قضاعة وكندة -قبيلة القاضي شريح- وغيرهما، ومن العرب العدنانيين نزل ثمانية آلاف شخص من قبائل تميم والرباب وغيرهما[2].

ووزعوا على نظام يتراوح من عصر لآخر ما بين أرباع أو أخماس أو أسباع، وتختلط فيه القبائل في منهج واحد، فصهرت في بوتقة الإسلام انصهارًا كامًلا فتكون طابع مميز يختلف عن الطابع القبلي القديم[3].

٢- الموالى: هم أسرى الحرب نتيجة الفتوحات الإسلامية، وقد اعتنقوا الإسلام فأعتقهم مالكوهم من المسلمين، فأصبحوا موالي لهم، وصاروا في منزلة بين الأحرار والرقيق، ثم دخل الموالي النظام القبلي وصاروا ينتسبون لقبائل مواليهم[4].

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد لابن سعد، ج ٦، ق ١، ص ٤.

(٢) انظر: السابق، نفس الموضع - وخطط الكوفة، لماسينون، ص١٥ - وجمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص٤٣٤-٤٣٩) ومعجم قبائل العرب، رضا كحالة (١٥/١، ٦٣، ٣٠٥، ٣٣٠، ٩٩٨/٢، ١٠٦٢/٣، ١٢٢٥).

(٣) الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة، د. محمد حسين الزبيدي، في نشرة جامعة بغداد، ص٥٥-٥٦، سنة ١٩٧٠م.

(٤) انظر: مقدمة ابن خلدون (ص٩٦)، والحياة الاجتماعية، د. محمد حسين (ص٧٤).

هذا بالإضافة إلى محاربي الفرس المستسلمين لجيوش الفتوح الإسلامية الذين تعاهدوا على الحرب مع المسلمين، فنالوا حقوقًا تقترب من حقوق العرب في الكوفة، وسمح لهم بالاحتفاظ بنظامهم الاجتماعي والثقافي[1].

ولكنهم ظلوا لا يحقَّ لهم أن يتقدموا في المواكب ولا أن يكتنوا بالكنى، ولا أن يتزوجوا من العربيات، وكذلك منعوا من تولي المناصب العامة كالقضاء وقيادة الجيش[2].

ولقد برعوا في دراسة اللغة العربية والفقه والحديث واشتهر بعضهم بالفصاحة، وقد أثرت نساؤهم تأثرًا واضحًا في الحياة الاجتماعية في الكوفة بإدخالهن بعض عاداتهن إلى البيوت العربية، ولقد تسنى لهن ذلك بشدة بعد انتشار ظاهرة الزواج منهن بين العرب[3].

ولقد أثروا في العلوم بإدخالهم بعض الكلمات الفارسية فيها، كما أثروا في القيم والأخلاق حتى نرى أحد الصحابة يرصد هذا التغيُّر الخلقي لأهل الكوفة الذي تسبب فيه الموالي فيقول: "يا معشر أهل الكوفة، أنتم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس، فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان، ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع: بخل وخب وغدر وضيق - ولم يكن فيكم واحدة منهن، فنظرت في ذلك فإذا ذلك في مواليكم فعلمت من أين

---

(١) انظر: فتوح البلدان، البلاذي (ص٢٧٩).
(٢) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه (٣، ٤١٣) تاريخ الطبري (٢٠٨/٧)
(٣) انظر: البيان والتبين، للحافظ (٣٤٦/١)، والكامل لابن الأثير (٥٢٣/٣).

أُتيتم، فإذا الخب من قبل النبط، والبخل من قبل الفرس، والغدر من قبل خراسان، والضيق من قبل الأهواز"[1].

٣- العبيد: غنم الكوفيون عددًا كبيرًا من العبيد نتيجة اشتراكهم في كثير من حروب الفتوحات الإسلامية.

ولم تكن الغنيمة هي المصدر الوحيد الذي عمل على ارتفاع عدد الرقيق بالكوفة، بل كان الشراء مصدرًا آخر لارتفاع أعدادهم، ولعب هذا العنصر النخاسون من اليهود دورًا كبيرًا[2].

وكان قيام بعض الرقيق ببعض الأعمال والحرف مصدرًا ثالثًا لارتفاع أعدادهم بالكوفة.

ويكفى التأكيد ارتفاع أعدادهم أن أذكر أنهم وقت موقعة صفين كانوا تُمُن سكان الكوفة، حيث كانت الدولة تملك عددًا هائلا منهم يعملون في تدريب المقاتلة وحراسة المدن والمؤسسات العامة وحفر القنوات، وكانوا يحصلون على رواتب بعض الأوقات مع الكساء والطعام[3].

ولكنَّ العامَّة كانوا يستخدمون العبيد في الأعمال الدنيَّة التي كانوا يأنفون من القيام بها، ولكن هذا لم يمنع أن يحترف بعضهم الحرب والمهن والصناعات ويبرعون فيها[4].

---

(١) انظر: الكامل، للمبرد (٢/٥٨٥)، والبيان والتبيين، للحافظ (١/٨٧)، تاريخ الطبري (٣/٢٢٠).

(٢) انظر: حاشية الأولياء، لأبي نعيم (٤/٢١١).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٣/٣٢٨).

(٤) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه (٣/٢١٣).

٤- أهل الذمة: المسيحيون. جاءوا من "الحيرة" والمدن المحيطة بها وبقوا على دينهم بموجب عهد عمر بن الخطاب ﷺ لأهل الحيرة، ثم بنوا كنائس بموافقة الأمير[1]، وعملوا في وظائف الكتابة بالدولة وبالدواوين عندما تكون لغة الكتابة بغير العربية، ثم قربهم بعض الأمراء منه، وكانوا يعملون بالصيرفة[2].

اليهود. جاءوا من "نجران" وانضم إليهم اليهود الذي أجلاهم عمر ﷺ واليهود الذين جاءوا من " الحيرة "[3]، وسمح لهم بممارسة عبادتهم - كما هو المعروف من سماحة الإسلام، وعملوا بالصيرفة والتجارة والطب وبعض الأعمال التي يأنف العرب العمل بها[4].

وكان لأهل الذمة عاداتهم الخاصة، ولباسهم الخاص الذي شرط عليهم عمر ﷺ في عهده ألا يشتبهوا فيه بلباس المسلمين، ولكن الولاة بعد عمر ﷺ تساهلوا في ذلك [5].

٥- السريان: جاءوا من "الرها" و"نصيبين" و"جنديسابور" و"حران" و"الحيرة" و"النجف" واستقروا بالكوفة والعراق ونشروا بعض ثقافاتهم

---

(١) انظر: الكامل، للمبرد (٨١٣/٣)، وفتوح البلدان، للبلاذري (ص٢٨٤).
(٢) انظر: السابق (ص١٤٧)، والحياة الاجتماعية والاقتصادية، د.محمد حسين (ص١٠٤).
(٣) انظر: الحياة الاجتماعية، د. محمد حسين (ص١٠٥).
(٤) انظر: أهل الذمة في الإسلام، تريتون، ترجمة حسن الحبشي، مصر، سنة ١٩٤٩م (ص٢٠٥).
(٥) انظر: الحياة الاجتماعية والاقتصادية، د. محمد حسين (ص١٠٨-١٠٩) والخراج، لأبي يوسف (ص٧٣).

فيهما كالفلسفة اليونانية، ومذهب أفلاطون خاصة، وترجموا في الطب والرياضيات والمنطق[1].

٦- **النبط**: هو خليط من "الكلدانين" و"الآراميين" وأكثرهم مسيحيون من قرون ومعنى النبط الفلاحون الناطقون بالآرامية[2]، ويبدو أنهم يتصفون بصفات أخلاقية أثرت في مجتمع الكوفة ويمكن ملاحظة ذلك في قول عمر بن العلاء لأهل الكوفة: "لكم حذلقة النبط وصلفهم"[3]، كما أثروا في الحياة العلمية بما نقلوه من علوم الطب والفلك والمنطق، فكانوا نقلة للحضارتين الرومانية والإغريقية[4].

❁ المسألة الثالثة: أثر البيئة الاجتماعية التي عاش فيها شريح في منهجه الفقهي:

إنه من الصعب أن يجد الباحث في منهج شريح الفقهي أثرًا لبيئته الاجتماعية بكندة، بل قد يصل الأمر بالباحث إلى نفي أي تأثير للبيئة الاجتماعية الكندية على منهج شريح.

وهذه النتيجة تؤكدها كثير من الأحداث التي وقعت بالكوفة مما يمكن أن يكون كشفًا بصورة دقيقة عن عدم تأثر منهج شريح الفقهي بالبيئة الاجتماعية الكِنْدِيِّة، ومن هذه الأحداث:

---

(١) انظر: ضحى الإسلام، أ. أحمد أمين (١/٢٧٠-٢٧٢).

(٢) انظر: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي (ص١٠٨)، ليدن سنة ١٨٧٧م.

(٣) انظر: البيان والتبيين، للجاحظ (٢/١٠٦).

(٤) انظر: التطور والتجديد في الشعر الأموي، د.شوقي ضيف (ص٤١)، القاهرة، سنة ١٩٥٩م.

١- أن شريحًا كان له ابن اسمه عبد اللَّه، فكفل ابنه هذا رجلا في دين، فأراد أن يخاصم أصحاب الدين، فسأل والده شريحًا القاضي عن حكم المسألة، فإن كان له الحق خاصمهم أمام والده، وإن كان عليه الحق لم يخاصمهم، فقال له شريح: اذهب فخاصمهم، فجاء فخاصمهم، فقضى شريح على ولده عبد اللَّه، وأمر أمين المسجد أن يذهب به إلى السجن، ثم أرسل إليه فرشًا وطعامًا في المساء، وقال له: إنك لأحب إلي من ملء الأرض من مثلهم، ولكنَّ اللَّه أعزُّ عليَّ منك، خشيت أن أخبرك أن القضاء عليك فتصالحهم، فتذهب ببعض حقِّهم[1].

فهذا شريح القاضي يقضى على ولده؛ لأنه يحبُّ اللَّه، ولا يحب أن يكون عونا لابنه على ظلم الناس.

٢- أن شريحًا جاءه يومًا الأشعث بن قيس - ملك كندة قبل دخولها الإسلام- في مجلس القضاء، فاستقبله شريح استقبالا عظيمًا وقال له: مرحبًا بشيخنا وسيدنا ها هنا ها هنا فأجلسه معه، فإذا رجل جالس بين يدي شريح، فقال: مالك يا عبد اللَّه ؟ قال: جئت أخاصم الأشعث ابن قيس. قال: قم مع خَصمِكَ. قال: وما عليك أن تقضي وأنا ها هنا. قال: قم قبل أن تقام فقام وهو مغضب؛ فقال: عهدي بك يا ابن أم شريح، وإن بثيباك السوس. قال: أنت رجل تعرف نعمة الله على غيرك وتنساها من نفسك[2].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٩٣/٦.

(٢) انظر: أخبار القضاة لوكيع ٢١٦/٢.

وهذا شريح أيضًا يرى الحق أولى من علاقة تربط بينه وبين رجل مبجل محترم عنده وهو الأشعث بن قيس، فيرفض كما قال في موطن مماثل أن يترك النصرة وهو عليها قادر[1].

وهذان الحدثان -وغيرهما كثير- يمكن أن نعتبرها أحداثًا تكشف عن أفول العصبية القبلية عن نفس شريح، حتى نراه يفضل الحق على ابنه، وعلى الرجل الذي كان زعيم قبيلته من قبل، مع أن العصبية القبلية تقضي غير ذلك، تقضي نصرة الابن والصاحب بغير سؤال عن أي شئ، تلك النصرة التي كان يفتخر بها كل قبلي حتى نرى شاعر القبيلة يمدح أفراد قبيلته بقوله:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا

وأرى أن السبب الرئيسي الذي جعل شريحًا لا يظهر في الجانب العملي من منهجه أثر لبيئته الاجتماعية الكندية، ما أحدثه الإسلام من تغير في النظام الاجتماعي الذي كانت قبائل الجزيرة تعيشه، ليحلَّ مكانه النظام الاجتماعي الإسلامي الذي يقوم على أساس منع الظلم الذي قد يسببه التعصب القبلي، ويظهر هذا جليًا من خلال قول النبي ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا. قالوا: هذا مظلومًا، فكيف أنصره ظالمًا. قال: أن ترده عن ظلمه**»[2].

---

(١) انظر: أخبار القضاة لوكيع، ٢/٢٩٥.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (كتاب المظلم - باب أعن أخاك مظلومًا أو ظالمًا (ح٢٤٤٣-٢٤٤٤) من حديث أنس بن مالك.

وبهذا تلاشى تأثير أهم السمات الغالبة على البيئة الاجتماعية الكندية؛ ولذا لم يظهر لها أثر في منهج شريح القاضي الفقهي.

ولكن الأمر يختلف عندما أتحدث عن البيئة الاجتماعية في الكوفة:

فقد ظهر بوضوح أثر البيئة الاجتماعية الكوفية في منهج شريح القاضي الفقهي، وذلك لأنها هي التي تتفاعل مع أفرادها، وهي الممثلة للواقع اليومي المعاش الذي خرجت ثمار فكر شريح لتنظيمه من خلال عمله بالقضاء.

۞ ويمكن أن أرصد و أوضح هذه الآثار فيما يلي:

١- مراعاة شريح القاضي للتركيب السكاني في الكوفة:

ويبرهن على هذا ما نراه من آثار كثيرة يظهر فيها تفاعله مع أكثر عناصر الكوفة، مما يعني أن تواجدهم في تركيبة الكوفة السكانية كان في ذهن وفكر شريح القاضي.

وتظهر مراعاته للتركيب السكاني بوضوح في كثير من الأمور أهمها:

أ - ما ذكر من أحكام تتعلق بأهل الكتاب:

ومن ذلك...

١- أن شريحًا قبل من أهل الكتاب الشهادة على وصية المسلم في السفر[1]، في حين منع ذلك غيره من الفقهاء، وكأنَّ شريحًا أحسَّ بأنهم أصبحوا جزءًا من مجتمع الكوفة لا يصح تعطيل الانتفاع به، ولكنَّ هذا العنصر لظروف خاصة بديانته لا ينتفع به إلاَّ في وقت الضرورة.

---

(١) انظر: أخبار القضاة لوكيع ٢/٢٨١، مصنف عبد الرازق للصنعاني، ٨/٣٥٩-٣٦٠.

٢- أن شريحًا عمل على تنظيم علاقة أهل الكتاب فيما بينهم فقبل شهادة كل ملة على ملتها[1]، وذلك لأنهم جزء من المجتمع يجب تنظيم تعامل أفراده فيما بينهم، لكي لا يحدث خلل في أنظمة المجتمع.

والواضح أن مراعاة شريح لوجود أهل الكتاب كأحد عناصر التركيب السكاني بالكوفة ساعد على اتضاح جانب عمل شريح بالمصلحة؛ لأن قبول شهادة أهل الكتاب على الوصية فيه مصلحة عدم ضياع الحقوق التي نسبت للموصى له، وكذلك تنظيمه للعلاقات بين أهل الكتاب فيما بينهم تقوم على مصلحة حفظ أنظمة الدولة الداخلية.

ب- ما ذكر من أحكام تتعلق بالموالي والعبيد:

ومن ذلك...

١- أن شريحًا جعل الولاء يورث [2]؛ لأنه أجراه مجرى المال وهذه المسألة أدعى بعض الناس تفرد شريح بهما وهو غير صحيح كما سيأتي في الكلام عن الاستدراك عليه.

وأرى أن شريحًا هنا نظر لمجتمع الكوفة الذي يكثر فيه الولاء ويذهب هذا الولاء عندما لا يورث، فرأى أن الولاء حق ماليّ، ولذا يصحُّ توارثه.

٢- أن شريحًا كان لا يقضي بجر ولاء أولاد الحرة التي تحت العبد إذا أعتق ثم رجع عن هذا وقضى بجر الولاء لموالى الأب بعد عتقه[3].

---

(١) انظر: السنن الكبرى للبيهقي ١٠/١٦٦ - أخبار القضاة لوكيع ٢/٢٥٦.

(٢) انظر: السنن الكبرى، للبيهقي ١٠/٣٠٣.

(٣) انظر: السنن الكبرى للبيهقي ١٠/٣٠٧ - مصنف عبد الرزاق، للصنعاني، ٩/٤٠-٤١.

وهذا يكشف عن قبول شريح لمسألة زواج الحرة من العبد؛ وذلك مراعاة للكثرة الهائلة من العبيد التي كانت موجودة بالكوفة، ويكشف أيضًا أن شريحًا راعى الحقوق مع عدم إغفاله جانب الحرية الذي معه تكمل الأهلية.

٣- أن شريحًا لم يكن يقبل شهادة العبيد، ثم كلَّمه علي بن أبي طالب ﷺ في ذلك فكان يقبلها بعد ذلك[1].

والواضح أن شريحًا رأى أن العبيد في مجتمع الكوفة لا يصلحون للشهادة؛ لأنها فيها معنى الولاية، هذا المعنى الذي لا يستطيعون القيام به؛ ولذا لم يقبل شهادتهم أولا. ثم كلَّمه الإمام عليٌّ في المسألة فرجع لرأي عليٍّ.

ويمكن أن نخلص إلى أن شريحًا كان مراعيًّا للتركيب السكاني في الكوفة الذي يشترك فيه الموالي والعبيد بنسبة تفوق نصف عد السكان فكثر في الأقضيات التي عرضت عليه مسائل تخصُّهم، مما دفع شريحًا للتفكير الذي وصل به إلى عدم كمال أهلية العبيد، وأن الموالي في منزلة بين العبيد والأحرار فتثبت لهم بعض الحقوق كالإرث والتملك.

وما كان ذلك إلا بسبب النظرة الاجتماعية للعبيد التي تجعلهم ليسوا أهلاً للولاية على شيء.

ولكنَّ قبول شريح لزواج الحرة من العبد كان قبولا لصورة كثرت في المجتمع الكوفي مع كثرة أعداد العبيد بالكوفة، ولكنه في نفس الوقت جعل الولاء مرتبطًا في حالة هذا الزواج بالحرية.

---

(١) انظر: مصنف ابن أبي شيبة لابن أبي شيبة، ٦/٧٧.

٢- مراعاة شريح القاضي للأخلاق في الكوفة:

لقد كانت مادة قضاء شريح القاضي بالكوفة الخصومة بين الأفراد في المجتمع الكوفي، ولاشك أن الأخلاق لا تنفك عن الفعل الإنساني؛ ولذا فهي مؤثرة بشدة في الخصومات سواء أكان هذا التأثير بإنشاء الخصومة أم كان في طريقة عرضها.

وهناك مؤشرات عديدة تشير إلى مراعاة شريح للأخلاق منها:

أ- مراعاة شريح للتغير الذي حدث في أخلاق الكوفيين:

ذكرت من قبل أن أخلاق أهل الكوفة تغيرت بشدة بسبب اختلاطهم بالموالي والعبيد من أجناس أخرى فظهر فيهم صفات وأخلاق لم تكن فيهم من قبل مثل الغدر والخب والضيق والبخل.

وكانت أشد الصفات التي انتشرت بالكوفة التحايل، مما لفت نظر شريح بشدة، ويظهر ذلك في آثار منها:

١- أن شريحًا كان يسأل عن الشهود في العلانية، فوجدهم يتحايلون عليه فسأل عن الشهود في السر -وكان أول من فعلها- فتتبعه رجل فقال له: أحدثت في القضاء! قال شريح: احدث الناس فأحدثنا[1].

وهذا يعني أن شريحًا راعى ما حدث في أخلاق أهل الكوفة من تغيير حتى أحدث من أجل ذلك إجراءات تناسب هذا التغيير.

٢- أن شريحًا جاءته امرأة فأرسلت عينيها تبكي فقال الشعبي لشريح: ما أظنها إلاَّ مظلومة. فقال: يا شعبي إن أخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون[2].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٦/٩١-٩٢.

(٢) انظر: أخبار القضاة لوكيع ٢/٢٢١.

فشريح أدرك أن هناك صفة انتشرت بالكوفة ألا وهي التحايل حتى أن حيلة هذه المرأة وقع في حبائلها الشعبي، فأخبره شريح أن هذه حيلة منها، وهذا يعني أن شريحًا كان مدركًا للتغير الأخلاقي الذي حدث بالكوفة فاحتاط لنفسه وللقضاء.

ب- مقاومة شريح للفساد الأخلاقي الذي ظهر بالكوفة:

كانت الكوفة مليئة بالأجناس الذين قد يحاولون الانتقام من العرب والمسلمين الذين فتحوا بلادهم وجعلوهم يعيشون حياة العبيد في ما بقى من عمرهم فبدءوا ينتقوا من المسلمين والعرب بنشر الفساد الخُلُقي في المجتمع الكوفي، وبدأ اللهو والمجون يظهر في أرجاء الكوفة، ولكنَّ شريحًا باعتباره قاضي الكوفة قاوم ذلك بعدة طرق أهمها القضاء، ويمكن ضرب أمثلة لذلك فيما يلي:

١- أن شريحًا لم يكن يضمن من يكسر آلات اللهو[1]، وكأنه يريد مقاومة ظاهرة اللهو التي انتشرت في الكوفة بنوع يمكن عدُّه في التعزير بأن لا يضمن آلات اللهو، وبهذا يحدُّ من انشارها في المجتمع.

٢- أن شريحًا جاءه رجل ليشهد وهو يرتدي ثيابًا كمه مخروط فسأله شريح: هل تحسن أن تتوضأ؟ فقال الشاهد: نعم، وحاول أن يخرج يده من كمه فلم يستطع. فقال له شريح: قم فلا شهادة لك عندي[2].

---

(١) انظر: المصنف لابن أبي شيبة ٣١٢/٧ - والسنن الكبرى للبيهقي ١٠١/٦.

(٢) انظر: أخبار القضاة لوكيع ٣٠٠/٢.

فشريح في هذا الأثر يقاوم ما انتشر في المجتمع من تهاون في أداء فرائض الإسلام، فجعل ردَّ الشهادة أحد أنواع التعزيرات على ذلك، وقد كان ردُّ الشهادة من أشد أنواع العار الذي يمكن أن يلحق العربي.

٣- أن شريحًا جاءه رجل يشهد، فسمع شريح الناس ينادونه ويقولون له: ربيعة الكويفر. فقال له شريح: رضيت الكفر على نفسك، قم فلا شهادة لك عندي[1].

وكأنَّ شريحًا يريد أن يقاوم ما ظهر في المجتمع من استهانة بالدين والانتساب إليه، بعد أن استشعر أن الرجل لا يعبأ بأن يوصف بالكفر فأراد شريح أن يحافظ على الدين من الاستهانة به، فرد شهادة الرجل ليرتدع كل من تسول له نفسه ذلك.

ونخلص من ذلك أن فساد الأخلاق دفع شريحًا ليتخذ إجراءات من شأنها ردع الناس عن هذا الفساد، وظهر بهذا محافظته على الدين والأعراض بمنع اللهو والاستهانة بالدين والتفريط.

٣- مراعاة شريح القاضي للأعراف بالكوفة:

عاش شريح القاضي بالكوفة عيش تفاعل مع كل مكونات المجتمع ومع أفكاره المنظمة لحركته اليومية التي يعتاد الناس عليها، هذه الأفكار والأفعال التي يطلق عليها الأعراف أو العادة.

---

(١) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/٣٠٩).

فالعادة والعرف ما استقر في النفوس من جهة العقول وتلقته الطباع السليمة بالقبول، أو ما يعتاده الناس ذوو الطباع السليمة من أهل قطر إسلامي بشرط ألاَّ يخالف نصًّا شرعيًّا[1].

والأعراف قد تكون عامة كتعارف الناس على عقود الاستصناع، وعلى بيه التعاطي. وقد تكون خاصة كتعارف أهل إقليم معين على أن يكون ثمن المياه في المساكن على حساب المالك ومن ذلك ما يتعارف عليه أهل الصناعات والحرف[2].

والأعراف والعادات التي يمكن أن تكون قد أثرت في منهج شريح القاضي هي أعراف خاصة بأهل الكوفة، وصناعها وحرفيِّيها، ومن ذلك:

أ- أن شريحًا ردَّ شهادة صاحب الحمَّام[3]. وذلك لأن أهل الكوفة من الأحرار كانوا يستهجنون العمل بهذه المهنة والشهادة كما سبق نوع ولاية، فيجب فيها العدالة وحسن السيرة.

ب- أن شريحًا اختصم إليه قوم من العزَّالين فقالوا: سنتنا بيننا كذا وكذا. قال: سنتكم بينكم.

فشريح هنا راعى العرف الخاص للغزَّالين وقضى به بينهم لأنه رآه غير مخالف لنص، وأدلى لهم لأنهم هم الذين اتفقوا عليه؛ ولذا من المنتظر أن يكون هذا العرف أكثر ملاءمة لهم.

---

(١) انظر: المستصفي، للغزالي (٢١٧/١).

(٢)انظر: المدخل للفقه الإسلامي، لمحمد سلام مدكور، دار النهضة العربية، ط٤، سنة ١٩٦٥م-١٣٨٩هـ (ص٣٢٩).

(٣) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٣٠٨/٢).

ومما سبق يتضح أن شريحًا كان متفاعلا مع مجتمع الكوفة أيما تفاعل؛ ولذا أثرت البيئة الإجتماعية الكوفية في منهجه الفقهي، في جوانب عديدة نجملها فيما يلي:

١- **الاهتمام بالمصلحة بصورة ملحوظة:** وهذا ما ظهر في تعامله مع أهل الكتاب بقبول شهادتهم عند الضرورة، وتنظيمه العلاقة فيما بينهم بقبول شهادة كل ملة على ملتها.

٢- **مراعاة جانب اكتمال الأهلية ونقصانها:** ويظهر ذلك في تعامله مع العبيد والموالي، وقبول شهادتهما أوردها.

٣- **الاحتياط الشديد في القضاء لحفظ الأعراض والأموال والدين:** ويظهر ذلك في إحداثه بعض الإجراءات التي من شأنها إبطال حيل المحتالين، وفي تعزيز بعض الناس نفسيًّا بردِّ شهادته، أو ماليًّا بإهدار مالية ما يملك وذلك ردع أصحاب الأخلاق السيئة لكي لا يذهبوا بالأعراض والأموال، ولكي لا يستهينوا بالدين أيضًا [1].

٤- **مراعاة الأعراف الصحيحة التي عليها أهل الحرف، ووضع أعراف أهل الكوفة في اعتباره:** وذلك واضح في أخذه بسنة الغزَّالين، وفي عدم قبول شهادة صاحب الحمَّام [2].

---

(١) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/٣٥٨).

(٢) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/٣٠٨).

المطلب الثاني
البيئة الاقتصادية التي عاش فيها شريح القاضي

❁ المسألة الأولى: البيئة الاقتصادية التي عاش فيها في كندة:

الحياة الاقتصادية في كندة لا نستطيع التعرف على معالمها الدقيقة، وغاية الأمر أننا نستطيع وضع صورة عامة لها، وهى التي تُظْهِر أن كندة كانت كسائر القبائل العربية التي تعتمد في كسب الرزق على التنقل في البادية والتجمع حول مناطق العشب والزرع.

ولكنها كانت تتميز بسطوتها وسيطرتها على سوق من أهم الأسواق العربية ألا وهو سوق "الرابية" الواقع بحضرموت، وكان هذا السوق يقام في النصف الثاني من ذي القعدة إلى آخر الشهر، فكان لا يصل إليه أحد إلا بحماية؛ لأن المكان الذي يقام عليه السوق لم تكن أرضه تحت إدارة حكومة معينة لهذا كانت الغلبة عليه للأقوى، فكانت قريش تأخذ الحماية من بنى آكل المُرار بن كندة، وسائر الناس يحتمون بآل وائل من كندة[1]. ولا شك أن السيطرة على مثل هذا السوق كان موردًا عظيمًا لاقتصاد كندة يكون له الأثر في تحسين وضع أفرادها من الناحية الاقتصادية، وإن كان ما بين أيدينا من أخبار يدل على أن عيشة وحياة كندة الاقتصادية لم تختلف عن سائر القبائل العربية؛ وذلك لقلة الموارد الممكنة، وهذا ما كان يؤدى لكثير من الصراعات في البادية، بسبب الصراع على الموارد القليلة في البادية.

---

(١) تاريخ اليعقوبي (١/٢٧٠)، المحبر لابن حبيب (٢٦٧)، أسواق العرب للأفغاني (٢٤٠).

❁ المسألة الثانية:البيئة الاقتصادية التي عاش فيها في الكوفة:

كانت البيئة الاقتصادية في الكوفة بيئة مستقرة ساعد على ذلك حسن تنظيم الإدارة هناك للموارد والنفقات؛ ولذا ارتفع مستوى المعيشة بالكوفة.

فعلى مستوى "الموارد"، كانت هناك موارد ثابتة لبيت المال بالكوفة منها:

١- **الخراج**: وهو ما أخذته الدولة على أرض السواد، وقد بلغ في عصر عمر ﷺ مبلغ الخراج ثمانين ألف ألف درهم، وقيل مائة ألف ألف[1].

٢- **الجزية**: وهو ما يؤخذ من أهل الكتاب، وقد قسم أهل الكتاب من جهة أخذ الجزية منهم في عصر عمر ﷺ إلى ثلاثة أقسام: أغنياء وعليهم ثمانية وأربعون درهم، ومتوسطين وعليهم أربعة وعشرون، ومن دونهم عليهم اثنا عشرة وأعفى النساء والشيوخ والأطفال وذوي العاهات ورجال الدين[2].

٣- **الغنائم**: كانت الغنائم مصدرًا رئيسيًّا في عصر الفتوحات الإسلامية كما كان الحال في عصري عمر ﷺ وبني أمية، وقد أحسن تنظيمها بصورة واضحة[3].

---

(١) انظر: تاريخ اليعقوبي (٢/١٣٠)، وفتوح البلدان، للبلاذري (ص٢٧٠)، ومعجم البلدان لابن خلكان (مواد).

(٢) انظر: النظم الإسلامية، لحسن إبراهيم (ص٢١)، والأحكام السلطانية (ص٢٤٩)، والأموال لأبي عبيد (ص٤٠).

(٣) انظر: السابق (ص٢٥٣)، وتاريخ الطبري (٣/٩، ١٢٩-١٣٢-٢١٨)، والأحكام السلطانية، للماوردي (ص٢٥١).

٤- **الضرائب على التجار**: فكانت تأخذ منهم هذه الضرائب عند دخول العراق، فيأخذ من أهل الكتاب نصف العشر، ومن غيرهم العشر، وربع العشر من المسلمين[1].

هذا بجانب موارد غير ثابتة كالذي يحصل عليه المسلمون نتيجة استسلام بعض المدن للمسلمين بدون حرب.

وعلى مستوى "النفقات" كانت هناك أيضًا مواطن للصرف ثابتة ومن هذه المواطن:

١- **العطاء**: وهو ما بدأ فرضه الإمام عمر ﷺ المقاتلة وغيرهم ووضعت ثلاثة معايير لها هي: النسب للرسول ﷺ والسابقة للإسلام، وحاجة الفرد للمال، وتفصيل المقاتلة، ولقد نال العطاء أيضًا الأعاجم والعبيد وأهل هجر[2].

وزاد الاعطيات في زمن معاوية، ولم يعرف زمن توقفت فيه الأعطيات حتى في زمن فتنة ابن الزبير[3].

٢- **الرزق**: هو مقدار من الأطعمة أضافه الخلفاء للمقاتلة وغيرهم من العامة حتى شمل العبيد والمساكين وذوي العاهات [4]، ولكن هذه الأرزاق كانت تتناسب طرديًّا مع الحالة الاقتصادية للدولة الإسلامية،

---

(١) انظر: الخراج، ليحيى بن آدم (ص١٧٣)، والأموال، لأبي عبيد (ص٥٣٠).

(٢) انظر: تاريخ اليعقوبي (١٣١/٢)، تاريخ الطبري (٧٣/٣، ١٠٩-١١٠) فتوح البلدان، للبلاذري (ص٤٥١).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (١٦٣/٧)، وتاريخ اليعقوبي (٢٠٧/١).

(٤) انظر: فتوح البلدان، للبلاذري (ص٤٤٧)- الأموال لابن سلام (ص٢٤٧)، وتاريخ الطبري (٣، ١٣)، وتاريخ اليعقوبي (٣٤/٣).

وكذلك الحالة السياسية حتى رأينا الكوفة يحرم أهلها من الرزق في عصر بني أمية؛ لأنهم كانوا مركز معارضتهم، وكان عدد الأشخاص الحاصلين على الرزق يزداد في زمن المجاعات كما حدث في عام الرمادة[1].

٣- **رواتب الموظفين**: أدت الإصلاحات الإدارية التي قام بها الخلفاء الراشدون وبخاصة عمر ﷺ إلى زيادة عدد موظفي الدولة، فوضعت لهم رواتب يختلف باختلاف الوظائف، وكان أعلاها رواتب الولاة والقضاة والعمال، ثم رواتب موظفي الدواوين[2].

وكان بيت المال ينظم موارد ومصروفات الدولة، وكان يتدخل لحل الأزمات الطاحنة كزمن مجاعة الرمادة، فكان يسمح للعامة بالاقتراض منه، هذا بجانب مساعدة راغبي الزواج واليتامى، وكان بيت مال الكوفة لا يرسل وارداته لبيت المال المركزي إلا بعد انتهاء نفقاته على الرعية[3].

وهذا كله أدى إلى تحسن المستوى المعيشي لأهل الكوفة.

ولقد ساعدت الثروة الزراعية والنشاط التجاري والحركة الصناعية في هذا التحسن أيضًا، أوجز فأقول:

---

(١) انظر: تاريخ اليعقوبي (٢/١٣٧-١٣٨)، أنساب الأشراف، للبلاذري (٥/١٩١)، وأحسن التقاسيم، للمقدسي (ص٩٨).

(٢) انظر: التمدن الإسلامي، جرجي زيدان (١٣٤،١) دار الهلال، تاريخ الكوفة للبراقي (ص٢٣٩-٢٤٠) ط/ النجف سنة ١٩٦٠م- تاريخ اليعقوبي (٢/٢٠٦).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٣/١٤٨)، الأغاني، للأصفهاني (١/١٥٢) الأموال، لأبي عبيد (ص٢٥١، ٤٢٠).

في مجال الثروة الزراعية كانت الكوفة غنية بالأراضي الزراعية سواء أكانت أراضي صالح أهلها المسلمين فبقيت في أيدي أصحابها كأراضي الحيرة، "وبانقيا" و "الأنبار" أم أكانت أراضي فتحت عنوة تخضع لنظام الجابية والخراج، أم أكانت من أراضي الصوافي التي كانت ملكًا لكسرى ومن قتل من أعداء المسلمين في الحرب، وظلت أرض الصوافي ملكًا للدولة حتى وزعها عثمان رضي الله عنه[1].

وفي مجال النشاط التجاري كانت الكوفة ذات نشاط تجاري متميز سواء أكان خارجيًّا مع بلاد كالصين والهند وفارس والجزيرة العربية والشام واليمن ومصر وعمان وغيرها وكان التبادل التجاري بين الكوفة وهذه البلاد في شكل صادرات وواردات[2].

أم أكان داخليًّا في شكل أسواق كثيرة للبراذين، والحدادين، والخزِّ والقصارين، والغنم والزياتين، والصيارفة والسماسرة، والبزازين[3].

وفي مجال الحركة الصناعية فقد اشتهرت الكوفة بجملة من الصناعات، ولكنها كانت بسيطة تناسب شكل الحياة في أول الأمر[4]، وسرعان ما تطورت حتى استفاد أهل البلاد المفتوحة من الحركة الصناعية التي تحتاج

---

(١) انظر: فتوح البلدان، للبلاذري (ص٢٤٤، ٢٧٢، ٣٦٨)، الخراج، ليحي بن آدم (ص٩) والخراج، لأبي يوسف (ص٥٧)، وتاريخ اليعقوبي (١٢٩/٢).

(٢) انظر: الحياة الاجتماعية والاقتصادية، د. محمد حسين (ص١٦٥-١٦٨)، البلدان لابن الفقيه (ص٢٥٢).

(٣) انظر: فتوح البلدان، للبلاذري (ص٢٨٤)، وتاريخ الطبري (١٥٦/٧)، وخطط الكوفة، ناسنيون (ص٢٢، ٣١).

(٤) انظر: الحياة الاجتماعية والاقتصادية، للزبيدي (ص١٨٩).

للمهارات والخبرات فانخرطوا في الحياة الصناعية الكوفية فساعدوا على تطورها في الكوفة[1]، وكانت أهم الصناعات والحرف التي انتشرت بالكوفة: صناعة النسيج والحدادة، والنجارة، وصناعة الخزف، والدهون، والصياغة، والصابون.

وكان لتسامح المسلمين مع أهل الكتاب أثره البالغ في تطوير صناعة الصياغة بالكوفة التي اشتهر صياغ أهل الحيرة بالبراعة فيها[2].

❁ المسألة الثالثة: أثر البيئة الاقتصادية في منهج شريح القاضي الفقهي:

إن الحياة الاقتصادية التي يعيشها قطر معين تؤثر في جميع مناحى الحياة فيه، ومن أهم المناحي التي تتأثر بالبيئة الاقتصادية الجانب الفكري؛ وذلك في محاولة من العقل للتغلب على المشكلات التي تفرزها البيئة الاقتصادية والعمل على تنظيمها للاستفادة بما تشتمل عليه من خبرات، وتجنب ما تحتوى عليه من مصاعب ومعوقات من شأنها التأثير في حركة الحياة في هذا القطر.

والقضاء يحاول أن ينظم حركة الحياة أيضًا برفعه الظلم وإثبات الحقوق لأهلها، ومعاقبة من يتعدى على حقوق الآخرين، ولاشك في أن يلتقي المنظم لحركة الحياة وهو القضاء، بالمؤثر في حركتها وهو البيئة

---

(١) انظر: السابق، نفس الموضع.

(٢) انظر: التبصرة بالتجارة، للحافظ (ص١٩)، اعتناء حسني عبد الوهاب التونسي، ط/ مصر سنة ١٩٣٥م- تاريخ الطبري (٧/٢٥٠)، تاريخ العراق الاقتصادي، للدوري (ص٩٧)، البلدان لابن الفقيه (ص٢٥٢)، الحيرة، ليوسف غنيمة (ص٨٣)، بغداد، سنة ١٩٣٦م - فتوح البلدان، للبلاذري (ص٢٨٠).

الاقتصادية، ومن الطبيعي أن يتأثر القضاء بهذه البيئة الاقتصادية التي تشكل صورة العلاقات التي تربط أفراد هذا المجتمع التي ينظمها القضاء.

ولقد تأثر منهج شريح القاضي الفقهي بالبيئة الاقتصادية تأثرًا شديدًا وظهر في عدة مظاهر سأتحدث عنها هنا بشكل عام، وأفصل الحديث عنها في موضعها.

obeikandl.com

❁ من المظاهر العامة التي أظهرت تأثر منهج شريح القاضي بالبيئة الاقتصادية:

١- كثرة ما روى من أقضيات تحتوى على آراء لشريح في البيوع بأنواعها، والتي ذكرت فيها لفظ البيع صراحة، فقد وصل عدد المواضع التي تحتوى على مسائل في البيوع إلى ثلاثمائة موضع، وهذه المواضع تشتمل على مائة وأربعين مسألة في البيوع - هذا بخلاف بعض المواضع التي لم يذكر فيها لفظ البيع صراحة ولكنها تدخل فيه.

وهذه الظاهرة تكشف عن كون الجانب الاقتصادي دخل في منهج شريح الفقهي كركن أساسي، بكثرة ما اختص به من مسائل عرضت على شريح القاضي فأظهرت منهجه.

٢- ظهور أنواع من المعاملات المالية شديدة التعلق بالحالة الاقتصادية في فقه شريح وقضائه، في حين أن هذه المعاملات لم تكن موجودة من قبل، ومن أمثلة ذلك البيع من العطاء، وبيع الزيادة فيه، وهما يتعلقان بما تحدثت عنه في مصارف بيت المال.

ومن أمثلته أيضًا مسألة بيع الأرض الخراجية، فهو نوع معاملات لم يكن موجودًا من قبل أيضًا، وتسبب في وجوده الفتح الإسلامي العظيم في عصر عمر بن الخطاب ﷺ ومن بعده.

ومسألة بيع الأرض الخراجية يظهر أن شريحًا توقف فيها في أول أمره؛ لأنه روى عنه أنه جاءه رجلان يختصمان في أرض خراجية فلم يقض بينهما حتى قاما[1].

---

(١) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/٣٣٠).

ثم روى عنه أنه امتلك أرضًا خراجية[1]، وهذا يكشف خروجه من حيز التوقف في المسألة للحكم فيها بجواز البيع ولعل ما حدث أولا كان بعد خلافة عمر ﷺ؛ إذ التحرج من الكلام في مسألة الأرض الخراجية مازال موجودًا وخاصة أن عمر ﷺ كان له رأي فيها يقتضي عدم بيعها وإبقاءها في أيدي أصحابها لتظل مورد دخل ثابت لبيت المال؛ ولذا توقف شريح في المسألة أول الأمر، ثم أظهر اجتهاده في المسألة بعد ذلك.

٣- كثرة ما روى من أقضيات لشريح تعالج مشكلات الموالي والعبيد، مما يظهر أن الحياة الاقتصادية كانت في أعلى معدلات ارتفاع مستوى المعيشة في الكوفة، حتى كان الرجل يخرج في الكوفة في عشرة أو عشرين من عبيده[2].

وهذا الارتفاع في مستوى المعيشة الذي كشف عنه كثرة أقضيات شريح التي قضى فيها في مسائل تخص العبيد والموالي أثرت في منهج شريح بأنها أضافت إليه كتبًا فقهية جديدة مثل العتق والمكاتبة وأحكام الرقيق وأمهات الأولاد.

وأضاف أيضًا كشفًا عن رأي شريح في أهلية الموالي والعبيد.

٤- ولقد كان تحويل بعض الأعمال في المجتمع إلى وظائف أثرًا هامًّا لرخاء الحياة الاقتصادية، ومن هذه الوظائف التي بدأت الدولة الإنفاق

---

(١) انظر: المرجع السابق (٢/٢٦٩).

(٢) انظر: ص١١٠ من هذه الدراسة.

عليها وظيفة القضاء، التي صارت وظيفة يقوم بها القاضي في مقابل قدر من الراتب لتفرغه هذا الوقت للقضاء[1].

ولقد كان شريح يرى هذا الرأي، وروى عنه وكيع أنه كان يقول: "أستوفى منهم وأوفيهم"[2].

فكان شريح يرى أنها وظيفة يتقاضى أجرًا لقاء التفرغ بها، ولم يكن هذا إلا لمعرفته بالارتفاع في المستوى الاقتصادي للبلاد، وأنه يصعب أن يتفرغ رجل لهذا العمل بدون توفير مصدر عيش له.

٥- ولقد كان للنشاط التجاري الواسع في الكوفة أثره في فقه شريح؛ فقد أظهر بصورة دقيقة رأيه في كثير من مسائل التجارات مثل الوكالة في الشراء والبيع، وشروط البيع، ومبطلات البيع وغيره ذلك من القضايا التي فرضها النشاط التجاري في البيئة الاقتصادية الكوفية.

٦- ولم يقتصر تأثير البيئة الاقتصادية في الكوفة في منهج شريح الفقهي عندما سبق، بل تعداه لتؤثر الحركة الصناعية بالكوفة فيه.

فقد أنتجت هذه الحركة الصناعية الكوفية المتطورة عددًا هائلا من الأجراء والصناع والعمال أثر وجودهم تأثيرًا كبيرًا في فكر شريح الفقهي، حيث إنهم بجانب أعمالهم التي يقومون بها يكونون مسئولين عن المواد التي يصنعونها، فكان جانب المسئولية ملاحظًا بشدة عند شريح تجاه عملهم، وخاصة مع تلاعب بعضهم وادعائه تلف هذه المواد بدون عمد، فاضطر شريح لتطوير نظرته لمسئوليتهم وجعلها مسئولية تامة

---

(١) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/٢٢٧).

(٢) انظر: المرجع السابق (٢/٢٢٦، ٢٢٧).

كاملة؛ ولذا ضَمَّنَ الصناع وكان اسم شريح من أسماء الفقهاء التي تعلقت بها مسألة تضمين الصُّنَّاع[1].

وبهذا تكون البيئة الاقتصادية الكوفية بكل مكوناتها أثرت في منهج شريح الفقهي، فيما نوجزه في النقاط التالية:

١- سيطرة أقضيات البيوع على قطاع كبير من الأقضيات المروية عن شريح؛ ولذا سيظهر بشدة اهتمامه بنظرية العقد وجوانبه وشروطه.

٢- ظهور أنواع جديدة من المعاملات المالية في أقضيات شريح مثل البيع من العطاء وبيع الزيادة فيه، وهذا يعني أن مساحة الرأي والاجتهاد في المعاملات ويعني أنه حاول أن يبحث عن علة يجمعها بغيرها من أشكال المعاملات الأخرى.

٣- الاهتمام بضبط مسألة الأهلية التي أثارها الأقضيات التي تعالج مشاكل الموالي والعبيد.

٤- الاهتمام بضبط مسألة الضمان وخاصة جانب المسئولية الذي جعله يذهب لتضمين الصُّنَّاع.

---

(١) انظر: المصنف لابن أبي شيبة (٣٣٦/٧).

المطلب الثالث

البيئة السياسية التي عاش فيها شريح القاضي

❁ المسألة الأولى:البيئة السياسية التي عاش فيها في كندة:

كندة قبيلة كبيرة كانت تعيش كسائر القبائل في حالة سياسية غير مستقرة نشأت عن كثرة المنازعات والأيام والحروب بينهم وبين جيرانهم ويظهر ذلك عند استعراضنا لعلاقة كندة -وخاصة بني معاوية- بمن حولها فقد كانت في حالة نزاع مع مذحج وقد نشبت بينهم الغارات المتبادلة إلى حد أن ملك كندة قيس بن معدي كرب الكندي -والد الأشعث بن قيس- قتل في موقعة حربية مع (مراد) المذحجية التي كانت تجاور همدان بالجوف، وكانت قبيل البعثة بخمس سنين[1]، وقد تحركت النخوة والحمية عند ابنه الأشعث بن قيس فأراد أن يثأر لأبيه فوقع في الأسر فاضطر إلى أن يفدى نفسه بثلاثة آلاف بعير -ولم يعرف أن أحدًا في العرب افتدى بمثل هذا الفداء[2]- ويبدو أن الأشعث تعرض للأسر مرة أخرى فقد غدر ببني الحارث بن كعب -وكأنه كان بينهم هدنة وحسن جوار- فغزاهم فأسروه ففدى نفسه بمئتي قلوص فأعطاهم مئة وبقيت عليه مائة فلم يؤدها حتى جاء الإسلام فهدم ما كان في الجاهلية[3].

---

(١) انظر: تاريخ الشعراء الحضرميين للسقاف (ج ١، ص٩١)، وخزانة الأدب، تحقيق عبد السلام هارون، سنة ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م (ج ٢، ص٢٣٩)، والزركلي في الأعلام (ج ٦، ص٦٠).

(٢) انظر المعارف لابن قتيبة، ص٣٣٣، والأمالي لأبي علي القالي، وذيله، دار الفكر بيروت الذيل، ص١٤٦.

(٣) انظر: الأعلاق النفسية لابن رسته، ص٢٢٩، ط/ بريلي ليدن، سنة ١٨٩١م.

ويلاحظ من موقف فروة بن مسيك من ملوك كندة يوم (الرزم) أنه كان في تحالف مع بعض كندة، ولكنهم خانوه، ولم ينصروه على همدان فتركهم مغاضبًا، ومعاتبًا، وتوجه شطر المدينة المنورة ليعلن إسلامه وينضم لصف المسلمين.

والجدير بالذكر أن كندة كانت دائمة الحروب مع (حضرموت)حتى كاد الفناء أن يعمهم(١).

وأرى أن هذا التوجه في السياسة الخارجية لكندة كان سببه سياستها الداخلية القائمة على النظام القبلي القائم على رأى الفرد ومشاحناته ومشاكله، وهو رأى زعيم القبيلة الذي كان يلقب بالملك، ولكثرة حروبهم ومشاكلهم مع جيرانهم لم يكن لديهم الفرصة للاهتمام بشئون القبيلة؛ لانشغالهم بالحروب والثارات بجانب قصر مدة ملكهم لأنهم غالبًا ما يقتلون في المعارك(٢) أو تحاك ضدهم المؤامرات فيقتلوا كما فعل بامرئ القيس الكندي الشاعر أحد ملوكهم(٣).

والجدير بالذكر أن ملوك كندة بلغوا سبعين رجلا أولهم (ثور) -كندة- و(مرتع) أبناء عمرو بن معاوية، وآخرهم الأشعث بن قيس(٤) الذي كان معاصرًا للإسلام وأسلم فيما بعد.

ولكن لم يكن هذا الملك إلا ملكًا اسميًّا؛ لأنهم لا يتعدون في آخر عهدهم أن يكونوا ملوكًا لا يمتلكون من الأراضي شيئًا ولهذا كان منهم أربعة ملوك

---

(١) انظر: تاريخ اليعقوبي، لليعقوبي (ج٦، ص ٢٣٦).
(٢) مثل ملكهم قيس بن معدي كرب، السابق ذكره.
(٣) انظر: تاريخ العرب في عصر الجاهلية (ص ٣٢٦، ٣٣٠).
(٤) انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ٤٢٨.

في وقت واحد -أما بقية فروع (كندة) فكان كل فرع مستقلا عن الآخر، له صلاته وعلاقاته- أي الفروع الأخرى سوى بني معاوية[1].

"ولعل أهم ما يجب أن نذكره عن الكنديين أنهم كانوا في أول أمرهم زعماء اتحاد قبلي يضم قبائل مختلفة تعترف بزعامتهم وتدين بالولاء لهم. وقد ساعد هذا الاتحاد القبلي الذي يدين بالزعامة لكندة إلى استقرار شئون القبائل في الجزيرة ونشر الأمن والنظام فيها. ولما انقرضت كندة حلت محلها في السيادة على القبائل دولة المناذرة، ولكن لفترة قصيرة، فلما سقطت دولة المناذرة تفككت عرى الوحدة القبلية في الجزيرة، واستقل كل واحد منهم بشئونه وأموره الداخلية حتى جاء الإسلام فأعاد الوحدة لهذه القبائل وضمها تحت جناحيه وسار بها ليقيم دولة الإسلام"[2].

❁ المسألة الثانية: البيئة السياسية التي عاش فيها في الكوفة:

لعبت الكوفة دورًا كبيرًا في الحياة السياسية في المجتمع الإسلامي بأكمله بعد مقتل الإمام عمر ﷺ شهيدًا في السنة الثالثة والعشرين من الهجرة وبرز هذا الدور في خلافه عثمان ﷺ.

ولقد كان للتغير الاجتماعي الذي لاحظه الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان ﷺ[3] أثر كبير في هذا الدور، فقد كانت الحياة في الكوفة لها طابع

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص ٤٢٩، ومعجم البلدان، ياقوت الحموي (ج ٢، ص ٣٦، ج ٤، ص ٣٥٠، ٣٥١).

(٢) كتاب تاريخ العرب القديم، وعصر الرسول، د/ نبيل عاقل، دار الفكر، بيروت، ط ٣، سنة ١٩٨٣م، ١٤٠٣هـ (ص ٢٢٢).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٣/٢٢٠)، وتاريخ ابن خلدون (٢/٣٩١).

غريب وصفه الدكتور محمد حسين الزبيدي بأنه عجيب تزواجت فيه الأهواء لتجعل من الكوفة مسرحًا للفتن والاضطرابات[1].

والحياة السياسية في الكوفة مبناها الرفض، فهي حياة رفض للحكم بكل صوره، ويظهر هذا في تحريك الكوفيين الفتنة ضد الإمام عثمان ﷺ حتى وصل الأمر لقتله بعد الثورة عليه التي هيجت فيها الكوفة البصرة ومصر للقيام بالثورة[2].

وبعد استشهاد عثمان بن عفان ﷺ خاف الكوفيون من بطش معاوية بن أبي سفيان بهم فبايعوا عليًّا ﷺ خليفة؛ فظن الإمام علىٌّ بالكوفيين خيرًا ومنعه فاتخذ قراره بنقل مقر الخلافة إلى الكوفة مع أن الصحابة حذروه من هذا القرار.

ثم أطلت الفتنة برأسها فكان شرارتها التي أشعلت سلسلة من الفتن حين خرج ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ على الإمام علىٍّ وهم طلحة والزبير وعائشة ﷺ وكانت موقعة الجمل بين ثلاثتهم وبين الإمام علىٍّ ﷺ جميعًا وكان الكوفيون في صفِّ الإمام علىٍّ، هذا ما دفع بعض الباحثين إلى أن يصف الكوفة بأنها مدينة شيعية[3].

---

(١) انظر: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة، د. الزبيدي (ص٢٦٢).

(٢) انظر: تاريخ ابن خلدون (٢/٣٩١-٣٩٣).

(٣) انظر: رسالة ماجستير بعنوان الأوضاع السياسية الاجتماعية في مدينتي البصرة والكوفة في العصر العباسي الأول - قسم التاريخ كلية دار العلوم للدكتور/ طه عبد المقصود (١/١٧٢).

وكانت موقعة الجمل سنة ست وثلاثين من الهجرة، وانتصر فيها عليٌّ ﷺ ومعه الكوفيون[1]، وما أن انتهت هذه الموقعة حتى أطلت الفتنة ثانية حين هيَّج معاوية أهل الشام للثأر من قتلة عثمان ﷺ الذين أدعى أن الإمام عليًّا يخفيهم، فخرج بهم لملاقاة الإمام عليٍّ وأهل الكوفة في (صفين) وكاد الإمام عليّ أن ينتصر لولا حيلة التحكيم التي أشار بها عمرو ابن العاص على معاوية.

ثم أراد الإمام عليٌّ ﷺ الخروج لملاقاة معاوية ومن معه ثانية فتقاعس أهل الكوفة، فلم يخرج، ولكن سرعان ما قتل الإمام عليٌّ شهيدًا في فجر يوم من أيام شهر رمضان بطعنة مسمومة من عبد الرحمن بن ملجم[2].

ولقد أفرز الصراع بين الإمام عليٍّ ﷺ ومعه الكوفيون وبين معاوية وأهل الشام فرقتين كان لهم أثر كبير في الأحداث السياسية وهما فرقتا الخوارج والشيعة وفيما يلي أعرض بعض آثارهما في الحياة السياسية في الكوفة:

❁ **أوَّلا: الخوارج:** ظهر الخوارج على الساحة السياسية الكوفية في موقعة (صفين) بعد خروجهم على التحكيم ووقوفهم في وجه الإمام عليٍّ، وبعد (صفين) استأمن ابن الكواء زعيمهم[3] الإمام عليًّا وكان معه عشرة فرسان فأمنهم وانحاز الباقون للنهروان فقاتلهم الإمام عليّ وهزمهم

---

(١) انظر: الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالكوفة (ص٢٦٧).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٨٤/٦)، والتنبيه والإشراف (ص٢٥٧)، تاريخ اليعقوبي (١٨٨/٢).

(٣) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني (١٢٤/١)، والفرق بين الفرق، للبغدادي (ص٦٧).

فتفرقوا في الأقطار[1]، ولكنهم ظلوا على تحفزهم وبدءوا في نشر فكر الخروج في كل قطر نزلوه، حتى جاء بنو أمية للحكم والخلافة فذاق الخوارج على يد ولاتهم زياد وعبيد الله ابنه والحجاج والمهلب كل أصناف الهوان من تعذيب وسجن وقتال حتى كانت نهاية الأمر بسلسلة من المعارك بينهم وبين المهلب هزمهم فيها وقضى عليهم في حروب دامت سنين طويلة[2].

ثانيًا: الشيعة: اختُلف في تحديد زمن نشأة الشيعة فبعض الباحثين يقول: ظهرت الشيعة منذ فتنة مقتل عثمان عندما كان ابن سبأ يدعوا الناس لمبايعة عليٍّ ﷺ، وابن النديم يرى أنها نشأت بعد موقعة الجمل، وباحث آخر يرى أنها نشأت يوم (صفين)[3].

والجدير بالذكر أن الشيعة نشأت كاتجاه سياسي في أول أمرها، ولكن سرعان ما تحولت بعد استشهاد عليٍّ والحسين ﷺ إلى فكر وتيار ديني تردد من خلالهما أفكار عبد الله بن سبأ الفاسدة [4]، وبعد تنازل الحسين عن الخلافة لمعاوية بدأت الشيعة يكون لها دور في مسرح الأحداث، وخاصة عندما تولى زياد على الكوفة فقام حجر بن عدي وأثار الناس للخروج على معاوية ثم قبض عليه زياد ومعه ستة وقتلوا[5].

---

(١) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني (١/١٢٥)، في مدن كعمان وكرمان واليمن.
(٢) انظر: تاريخ الطبري (٦/١٠٠)، والكامل لابن الأثير (٣/١٠٠٤، ١١٢٢).
(٣) انظر: تاريخ الطبري (٥/٩٨-٩٩)، فرق الشيعة، للنوبختي (٢١-٢٢) الأوضاع السياسية (١/٧٢-٧٣).
(٤) انظر: السابق، نفس الموضع.
(٥) انظر: طبقات ابن سعد (٦/١١)، تاريخ الطبري (٥/٢٥٦).

ثم لَّما تولى يزيد بن معاوية الخلافة خرج عليه الحسين ﷺ وأرسل إلى الكوفة ابن عمه مسلم بن عقيل ليتولى أمرها فبايعه أهل الكوفة، ولكن سرعان ما وصل عبيد الله بن زياد وقتل مسلمًا، فلما سمع أهل الكوفة بذلك تفرقوا من حول الحسين واستشهاد الإمام الحسين ﷺ بـــ كربلاء في سنة إحدى وستين من الهجرة[١]، فحزن أهل الكوفة حزنًا شديدًا على تقاعسهم عن نصرة الإمام الحسين ﷺ، وكانت أول غضبة علنية لهم حين سبَّ عبيد الله عليًّا والحسين ﷺ فسب عبد الله بن عفيف الغامدي الأزدي عبيد الله وأباه ومن ولاَّه، فقبض عليه وقتل مصلوبًا[٢]، ثم قامت ثورة التوابين بعد وفاة يزيد بن معاوية سنة أربع وستين[٣] وخلع التوابون والي ابن الزبير على الكوفة عمرو بن حريث وولو سليمان بن صرد قائدًا وكان ممن شهد (صفين)[٤]، ولكنَّ ابن زياد عاد إليهم من الشام بعد ارتحاله لملاقاة جيش ابن الزبير فهزمهم في (عين الوردة)، وقتل قائدهم سليمان بن صرد سنة خمس وستين، وظل الناجون حتى قامت ثورة المختار بن أبي عبيد في عامي ٦٦، ٦٧، الذي بايع ابن الزبير بعد وفاة يزيد واستقرار الأمر لابن الزبير، ولكن المختار عند عودته للكوفة زعم أن ابن الحنفية بعثة واليًّا عليها فقبض عليه والي ابن الزبير على الكوفة، ولكنه

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق (ص٣٧)، العواصم من القواصم لابن العربي (ص٢٣٧)، عيون الأخبار لابن قتيبة (١/٢١١).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٥/٤٥٨).

(٣) انظر: الخوارج والشيعة، لفلوزن (ص١٣٧).

(٤) انظر: تاريخ الطبري (٥/٥٦٠).

خرج بشفاعة زوج أخته الصحابي عبد الله بن عمر ﷺ[1]، فنشر دعوته وجهز جيشًا واستولى على الكوفة وبعد قتال مرير مع عبيد الله بن زياد وجيش الشام عاد للكوفة ليخضع أشرافها الذين أرادوا عزله فأخضعهم سنة ٦٧هـ[2]، ولكن قتاله مع مصعب بن الزبير أسفر عن قتله سنة ٦٧هـ وانتهاء حركته[3].

ثم تولى الخلافة عبد الملك بن مروان وحاول ملاقاة ابن الزبير عدة مرات حتى لاقاه في سنة ٧١هـ بـ(مسكن) فانتصر جيش عبد الملك بقيادة الحجاج، وكان لشدة الحجاج والي الكوفة من سنة ٧٥هـ إلى سنة ٩٥هـ أثرها الكبير في عدم ظهور رأي ثورة بعد ثورة المختار بالكوفة[4].

---

(١) انظر: السابق (٦/١٥-١٨).
(٢) انظر: السابق (٦/٨١-٩٢).
(٣) انظر: أنساب الأشراف، للبلاذري (٥/٥٥- ٢٦٣)، وتاريخ الطبري (٦/١٠٤).
(٤) انظر: تاريخ الطبري (٦/١٨٧-١٩٢، ٢٠٤).

"المسألة الثالثة"

أثر البيئة السياسية التي عاش فيها شريح القاضي في منهجه الفقهي

إن البيئة السياسية الكوفية كانت مليئة بالأحداث المهمة والخطيرة في تاريخ الأمة الإسلامية.

فالكوفة هي الموطن الذي ظهر فيه أول فرقة من فرق المسلمين: الشيعة، وعلى مقربة منها قتل الحسين بن عليٍّ ﷺ، وبها قتل عليٌّ ﷺ وهو أمير المؤمنين.

وهي الموطن الذي قاسى من ويلات الحجاج الثقفي وزياد وعبيد الله ابنه ما قاسى؟ ولذا كانت الكوفة مسرحًا شديد الاضطراب وأحداثه دائمة متلاحقة؟ من قتل أمير المؤمنين إلى قتل ابنه إلى ثورة تعلن التوبة ثم ثورات واضطرابات كثيرة.

وقد ذاع اسم الكوفة في آفاق الأحداث وهي تعلن عن انتسابها للتشيُّع، وتتحرك من خلال هذه النسبة في كل حدث.

وهذه البيئة المضطربة شديدة التلاحق في أحداثها عاش فيها شريح، وكأنه ليس بين المصطلين بنار أحداثها وكأنه نظر لنفسه فوجدها لا ترضى حياة الهياج والثورات والنزاع والتشاحن، بل لم تطمئن نفسه للاشتراك مع إحدى الفرق التي دارت على منازعاتها رحى الثورات؛ ولذا أخذ عهده على نفسه ألا يشترك في الحياة السياسية المحيطة به؛ راضيًا بأن يكون عونًا على جمع كلمة المسلمين من خلال قضائه؛ وذلك بأن يجعل الخصوم لا يغلب عليهم سخط الحق وإنكاره، بل يجعلهم يتصالحون ويسلم كل منهم قياده للحق.

ولقد دلت أمارات ودلائل على تجنب شريح الاشتراك في الحياة السياسية المحيطة به، منها:

١- ما روى عنه بأنه ترك القضاء في زمن فتنة ابن الزبير حتى قال في ذلك: ما أخبرت ولا استخبرت مذ كانت الفتنة. قال له مسروق: لو كنت مثلك لسرني أن أكون مِتُّ. قال شريح: فكيف بأكثر من ذلك: تلتقي الفئتان وإحداهما أحب إليَّ من الأخرى[1].

وهذا النص يكشف عن تجنب من قبل شريح لأن يشترك في الأحداث السياسية وإن كان بقلبه ميل لإحدى الفرقتين، ولكن هذا الميل لم يدفعه للاشتراك في الأحداث.

٢- ما حدث منه عندما قامت ثورة المختار الثقفي الشيعية في عامي ٦٦-٦٧هـ، فقد ذكرت الآثار الصحيحة أن شريحًا تمارض لكي لا يقضي للمختار، فقال الشيعة للمختار: إنه عثماني فشهد على حجر بن عدي. فعزله وصيّر على القضاء عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود[2].

وهذا يدلُّ على حرص شديد من قبل شريح على عدم الاشتراك في السياسة، بل وعدم تولي المناصب العامة في زمن الفتنة والثورات.

٣- ما روى وكيع من أن عبد الملك بن مروان عندما جاء للخلافة سأل: أين شريح العراقي؟ قالوا: حي. قال: عليَّ به، فجاءه. فقال: ما منعك

---

(1) انظر: مصنف ابن أبي شيبة (١٢٢/١٥).

(2) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٣١٩/٢)، أنساب الأشراف للبلاذري (٢٢٩/٥).

من القضاء –أي زمن الفتنة ابن الزبير–؟ فقال: ما كنت لأقضي بين اثنين في فتنة [1].

فهذا نصٌّ صريح من شريح يعلل فيه سبب تجنبه القضاء في زمن الفتنة مما يوضح حرصه الشديد على تجنب المناصب العامة في أزمنة الاضطراب السياسي.

ولما سبق استبعد أن يكون منهج شريح القاضي الفقهي قد تأثر بالبيئة السياسية الكوفية؛ لحرص شريح الشديد على عدم الاشتراك في الأحداث السياسية.

ولكن هذا لا يعني أن السياسة لم تكن تعترض طريق شريح القاضي الفقهي، بل كانت تفرض عليه السياسة فرضًا في بعض المواقف لتضعه في اختيار صعب، ولكنَّ شريحًا دائمًا يسير على جادة الصواب التي لا تعرف هيبة إلا للحق، ولا تقيم اهتمامًا لكون القائل ذا منصب سياسي معين، ولو كان أمير المؤمنين. ويظهر ذلك في عدد من المواقف منها:

١- أن شريحًا كان له موقف محدد من مسألة أن يرث المسلم من الكافر، ولا يرث الكافر من المسلم، تلك المسألة التي اجتهد فيها الخليفة معاوية بن أبي سفيان بجواز أن يرث المسلمُ الكافرَ لا العكس. وأرسل لزياد بذلك يقضي به، فقال بعض الناس: ما حدث في الإسلام حدث بعد قضاء أصحاب رسول الله ﷺ أعجب إلي منه، وقال الفقهاء: لقد أحسن. فقال شريح: سُنَّةُ رسول الله ﷺ أحسن [2].

وكأنه رفض أن يتدخل قرار سياسي في أمر فقهي فيه نوع مخالفة لسنة النبي ﷺ. ولَّما أرغم شريحًا من قبل زياد أن يقضي بهذا القضاء كان يقول: "هذا رأي أمير المؤمنين"[3].

---

(1) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/٣٩٨).
(2) انظر: أنساب الأشراف (جـ٤/ق١/٢٣٤).
(3) انظر: المرجع السابق (جـ٤/ق١/٢٣٥).

وكأنه يرفض أن ينسب هذا الرأي إليه، ويذكره بطريقة عرفت لدى الفقهاء فيما بعد بـــ"حكاية رأي الخصم". وهذا رفض واضح من قبل شريح أن يأخذ رأيًا فقهيًا من القيادة السياسية؛ لأنه يعرف أنه من حقه أن يجتهد ويقضي باجتهاده ورأيه الذي رآه.

٢- أن شريحًا حبس عاملا لزياد، فأرسل إليه زياد، ليخرجه فرفض، فجاءه زياد، فقال له شريح: **السجن سجنك، والبوَّاب بوَّابك، والعامل عاملك؟ وأما أنا فإني رأيت الحق عليه؛ فحبسته لذلك. وأبى أن يخلى عنه**[1].

وهذا الخبر أيضًا يوضح شدة مواجهة شريح لأي تدخل في قضائه ورفضه أن يكون قضاؤه بلسان أهل الولاية والسياسة فرفض أن يخرج المسجون معلنًا أنه لا يغير رأيه لطلب ذي سلطان.

❁ **الخلاصة**: أن شريحًا كان شديد التجنب للاشتراك في السياسة وهذا ما يقرره أحد الباحثين أثناء ذكره لصفات إبراهيم النخعي في رسالته عنه فيقول: "وأخذ إبراهيم النخعي من شيخه شريح تجنبه الاشتراك في السياسة"[2]. ولكن السياسة إذا فرضت على شريح وفقهه فكان يرفض تخير فقه ليوافق الأوامر السياسية.

---

(1) انظر: المرجع السابق (جـــ٤/ق١/٢٣٤).

(2) انظر: رسالة، إبراهيم النخعي فقهه بين معاصريه (ص١٧٩).

المطلب الرابع

أثر البيئة الثقافية التي عاش فيها شريح القاضي

۞ المسألة الأولى: البيئة الثقافية التي عاش فيها في كندة:

سبق أن ذكرت أن الكنديين لم تكن لهم حضارة على مستوى حضارة الغساسنة والمناذرة، وأنهم احتفظوا بنظم البدو في الجزيرة العربية.

وقد كانت البيئة الثقافية الكندية انعكاسًا دقيقًا لحياتهم البدوية، فلم تظهر لديهم من ألوان الفنون إلاَّ فنون الكلام من شعر وخطابة.

ولكن الدارس للبيئة الثقافية الكندية يلحظ أن الكنديين برعوا في الشعر بصورة واضحة فقد ظهر منهم شعراء عظام أمثال امرئ القيس بن حجر، ومعدي كرب بن الحارث -جد الأشعث بن قيس-[1].

وكان لامرئ القيس فضل كبير على الشعر العربي فهو الذي أدخل فيه فنونًا جديدة واتبعته عليها الشعراء مثل استيقافه صحبه على الديار، ورقة النسيب، ودقة التشبيه[2].

أما عن أدیانهم، فمن المعروف أن ملوكهم كانوا وثنيين، يعبدون الأصنام، ومن أصنامهم المعروفة (ذو الخلصة) وكانوا يستقسمون عنده بالأزلام، ولكنَّ ابن الكلبي يروي أن امرأ القيس الكندي أخفر لأول مرة عند إرادته قتل بني أسد ثأرًا لأبيه، فكان أول من أبطله و لم يُسْتَقسم بعد

---

(١) انظر: تاريخ العرب في عصر الجاهلية، د/ السيد عبد العزيز سالم - دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ (ص٣٣٢ - ٣٣٣).

(٢) انظر: العصر الجاهلي، شوقي ضيف، القاهرة، ١٩٦٠م (ص ٢٤٩).

ذلك عنده حتى ظهور الإسلام، وكان بعض ملوكهم من الزنادقة كحجر بن عمرو وآكل المرار، وابنه عمر[1].

وكانت اليهودية من الأديان التي انتشرت في كنانة وكندة، ويبدو أنها سرت إليهم من مجاورة اليهود لبني كنانة بيثرب وخيبر، ومن اتصال كندة بالتبايعة في آخر عهدهم وتبعيتهم لهم[2].

وكانت المسيحية أكثر انتشارًا في نجد، ولكنها تسربت إلى اليمن عن طريق الأحباش، ويبدو أن أول تنَّصر من ملوك كندة هو معد يكرب الكندي الملقب بذي التاج الأوضح، ونعتقد أن ولديه الأسود وقيس كانا مسيحيين[3].

❁ المسألة الثانية: البيئة الثقافية التي عاش فيها في الكوفة:

كانت الكوفة أحد المراكز الأساسية المهمة للثقافة الإسلامية بشتى فروعها في صدر الإسلام والعصر الأموي، للأسباب التالية:

١- وقوعها في منطقة ذات حضارات كثيرة: بابليين، وكلدانيين، وآشوريين، ويونان، وفرس[4]. وسبق أن عرضت أثر هذا الاختلاط الحضاري في أخلاقهم كما وصفه الصحابي حذيفة بن اليمان، ولا شك أنه أثر في الثقافة أيضًا.

---

(١) انظر: تاريخ العرب في عصر الجاهلية، د / السيد سالم (ص ٣٣٣ - ٣٣٤).
(٢) انظر: المعارف لابن قتيبة (ص ٣٠٥).
(٣) انظر: تاريخ العرب في عصر الجاهلية، د / السيد سالم (ص ٣٣٤ - ٣٣٥).
(٤) انظر: فجر الإسلام، أحمد أمين (ص ١٧٦).

٢- الكوفة أيضًا مكان تكثر فيه الفتن والاضطرابات ، فيكثر فيه الجدل والمناظرة اللذان لم يقلا شدة وعنفًا عن الاضطراب السياسي[1].

٣- وجود الموالى المتحضرين الذين استقروا في الكوفة حتى إذا انقضى عصر الصحابة وفى نهاية عصر التابعين كان أكثر العلماء من الموالى - فنسقت العلوم وتطورت ولم تبق على بساطتها الأولى. كما يذكر ابن خلدون واندرجت في جملة الصنائع، كما حرص الموالى على إثبات وجودهم ردًّا على النظرة الدونية لهم.

ولهذه الأسباب مجتمعة صارت الكوفة أهم مراكز الإشعاع بالدولة الإسلامية من الناحية الثقافية، لما ينتجه تداخل وتقارب الثقافات من نتاج فكرى يتسم بالتنوع والتطور والتجديد، فيعمل هذا النتاج على إيجاد صور من الثقافات لم تكن موجودة أو يطور وجودها إذا كانت موجودة.

ولما كانت للصراعات من إخراج النتاج العقلي والفكري المشحون بإحساس الانتصار للمذهب أو المبدأ الذي ينتمي إليه صاحب هذا النتاج، فكلما وجد صراع تسبب ذلك في صراع عقلي وفكري تأخذ فيه الحِجَاجُ دورها في الدفاع عن معتقد صاحبها ولا يقل هذا الصراع ضراوة عن الصراع العسكري.

وكلما وجد إفراد في مجتمع يتصفون بتنوع ثقافاتهم، مع بحثهم الدائب عن مكانة لهم في المجتمع، فلا شك أن ذلك سيؤدى إلى استنفاذ ما لدى هؤلاء الأفراد من قدرات فكرية وعقلية؛ ليتمكنوا من الحصول على مكان لهم بين أفراد هذا المجتمع، وهذا ما فعله الموالى إلى حد بعيد.

---

(١) انظر: حياة الشعر في الكوفة د / خليف (ص ٢٣).

وهكذا ضربت الكوفة بتنوع تركيبتها السكانية، وكثرة الصراعات الفكرية، ووجود أفراد يبحثون عن مكان لهم في المجتمع، ضربت مثلا رائعًا في جميع مجالات الثقافة؛ فتصدرت الحياة الثقافية والفكرية في الدولة الإسلامية.

وسأحاول خلال هذا العرض تقديم صورة للحياة والبيئة الثقافية المسيطرة على الكوفة في فترة بقاء شريح القاضي بها، وذلك بالحديث عن حالات الاهتمام بالعلوم في عصره بصورة موجزة.

❁ أولا: العلوم المتصلة بالقرآن:

من الثابت أن المسلمين يهتمون بالقرآن اهتمامًا بالغًا؛ لأنه المصدر الذي تستقى منه الضوابط والمعايير المنظمة لكل أمور حياتهم.

ولذا ظهرت جملة من العلوم كان موضوع دراستها خدمة القرآن مثل علمي القراءات والتفسير.

"وقد شغل أهل الكوفة منذ وقت مبكر من تأسيسها بالقرآن الكريم: قراءته وإقرائه وتفسيره، وقد وصفهم عمر بن الخطاب بأن لهم دويًا بالقرآن كدوى النحل، وأوصى بعض من توجه إليها من الصحابة[1] بأن يعنوا بالقرآن ويتفرغوا له وبألا يشغلهم شيء عنه حتى حديث رسول الله ﷺ، والواقع أن أهل الكوفة استجابوا لنصح عمر ونفذوا وصيته بصورة كان لها أعمق الآثار وأقواها في الحياة الدينية في الكوفة"[2].

---

(١) هو: قرظة بن كعب الأنصاري، راجع الطبقات الكبرى لابن سعد (ج٦، ص٢)

(٢) حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، د/ يوسف خليف، المجلس الأعلى للثقافة، المكتبة العربية (ط ٢، ص ٢٤٥).

وكان للإمام العظيم عبد الله بن مسعود ﷺ أثره العظيم في الحياة الفكرية الدينية في الكوفة على المستويين: القراءة ومعها التفسير والتشريع[1]، وسأتحدث هنا عن جانب القراءة، وعلى أن أذكر التشريع عند حديثي عن علم الفقه. فكان عبد الله بن مسعود ﷺ قد بعثه عمر ﷺ للكوفة معلمًا ووزيرًا، وكان معروفًا بطول صحبته للنبي ﷺ وملازمته له، فكان أعلم الصحابة بالقرآن قراءة ومعرفة لأسباب النزول.

ولما نزل الكوفة التف حوله تلاميذ كثيرون، نستطيع القول بأنهم كوّنوا مع أستاذهم ومعلمهم عبد الله بن مسعود ﷺ مدرسة في قراءة القرآن، وقد ذكر السيوطي في الإتقان ثبتًا مليئًا بأسماء تلاميذ ابن مسعود ﷺ من القراء، حتى ذكر أن عدد القراء بالكوفة كان يفوق عدد القراء في المدينة ومكة والبصرة والشام، وتتضح هذه الكثرة إذا علمنا بأن القراء الكوفيين كان لهم كتيبة في جيش ابن الأشعث في ثورته ضد الحجاج.

وبهذا كان لعبد الله بن مسعود ﷺ دور كبير في مجال علم القراءة في الكوفة.

ولقد كان تفسير القرآن في أول الأمر في عصر الصحابة لا يتعدى تفسير الغريب من ألفاظ القرآن واستنباط الأحكام الفقهية منه فحسب وهذا ما قام به ابن مسعود ومدرسته في الكوفة أيضًا.

❁ ثانيًا: علم الحديث:

إن المصدر الثاني للتشريع الإسلامي هو السنة، ولذا كانت في المرتبة التالية للاهتمام بعد القرآن الكريم مباشرة.

---

(١) انظر: المرجع السابق (ص ٢٤٥، ص ٢٤٦).

ومن المقرر لدى الباحثين في علم الحديث أن علم الحديث مرَّ بمراحل متعددة في تدوينه بدأت بمرحلة الرواية الشفوية، وانتهت بمرحلة التدوين، والتأليف في أنواع الحديث وضوابطها ومصطلحاته.

ولقد استمرت مرحلة الرواية الشفوية للحديث الشريف إلى نهاية القرن الأول -أي ما يستغرق الفترة الزمنية التي عاشها شريح القاضي-.

والرواية الشفوية لم تكن آخذة شكلا واحدًا في الاهتمام والحرص عليها؛ ولذا كان الاهتمام يختلف من مصر لآخر، فكانت تلاقى أكبر اهتمام في الموضعين اللذين شرفهما الرسول ﷺ بالعيش فيهما مكة والمدينة في حين الاهتمام بالحديث في الأمصار التي لم تنل هذا الشرف قد يكون أقل[1].

وقد كانت الكوفة من الأمصار التي لم يتسع فيها الاهتمام برواية الحديث، وأرى ذلك يرجع لأسباب، منها:

١- تنفيذ أهل الكوفة لوصية الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي بعث بها مع قرظة بن كعب الأنصاري الذي قال: "أردنا الكوفة فشيعنا عمر إلى صرار، فتوضأ، فغسل مرتين، وقال: تدرون لِمَ شيعتكم ؟ فقلنا: نعم، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ امضوا وأنا شريككم"[2].

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون (ص ٣٥٢ - ٣٥٣)، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٩٩٣م، ١٤١٣هـ.

(٢) طبقات ابن سعد لابن سعد (ج٦، ص ٢).

وهذا يكشف عن توجه للخلافة الإسلامية نحو عدم الإكثار من رواية الحديث في الكوفة، لأن ذلك يشغلهم عن موضع الاهتمام الأول: القرآن. وقد يكون مقبولا أن أقول: إن الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب ﷺ طلب من قرظة بن كعب الاهتمام بالقرآن؛ لمعرفة الفاروق عمر أن الكوفة أرض تتعدد فيها الاعتقادات، فيها اليهودية والنصرانية، وغيرهما من الديانات فلابد من الحفاظ على أهم مصادر الإعجاز التي تبهر هؤلاء وهو القرآن.

ولقد اهتم أهل الكوفة اهتمامًا بالغًا بالقرآن كما سبق الإشارة إليه، وكان ذلك على حساب الاهتمام برواية الحديث الشفوية بل كان أهل الكوفة يعتبرون هذا الاهتمام بالقرآن أهم ما يميزهم عن غيرهم من أهل الأمصار الأخرى، ويظهر هذا عندما قدمت الوفود على عبد الملك ابن مروان، وأخذ كل وفد يعرض مميزات مصره، فقال وفد أهل الكوفة: "ألا أن فينا تلاوة القرآن الكريم " [1].

٢- ومن الأسباب التي عملت على تقليل الرواية الشفوية للحديث بالكوفة، تحرج الصحابة الذين نزلوها من رواية الحديث خشية الكذب على النبي ﷺ الذي توعد من كذب عليه بالنار.

وكان على رأس المتحرجين بالكوفة من رواية الحديث، معلمها عبد الله ابن مسعود ﷺ، فكان إذا شك في رواية حديث جعله من كلامه[2].

---

(١) انظر: البلدان لابن الفقيه (ص ١٩٢).

(٢) مما يكشف ذلك قول أبي عمرو الشيباني: كنت أجلس إلى ابن مسعود مولا لا يقول: قال رسول الله ﷺ فإذا قالها أخذته الرعدة، انظر طبقات ابن سعد (٣/ ١ /١١٠/١١١).

ولقد أثر هذا التحرج على كثير من تلاميذ عبد الله بن مسعود ﷺ، بل أثر في الحياة العلمية بأكملها في الكوفة، لما كان له من مكانة علمية في نفوس الكوفيين.

٣- ومن الأسباب أيضًا اهتمام أهل الكوفة بالمعقول أكثر من اهتمامهم بالمنقول؛ وذلك لمناسبته لطبيعة عقلية أهل الكوفة متعددة الثقافات التي تنتمي لعدد من الحضارات كالكلدانية والآشورية واليونانية والفارسية[1].

فاهتم أهل الكوفة بإعمال عقولهم، وأرى أن هذا من أهم أسباب ظهور مدرسة الرأي بالكوفة.

وهذا لا يعنى أن الكوفة لم يظهر علم الحديث في سمائها العلمية، بل ظهر علم الحديث بقوة عندما بدأت حركة تعد من أسوأ الحركات العلمية التي مرت بها الأمة الإسلامية، ألا وهى حركة الوضع في الحديث الشريف، تلك الحركة التي كانت تفريخًا للصراع الدامي بين الفرق في الكوفة، والصراع الفكري بين الفرق المنحرفة كالشيعة والخوارج وبين أهل السنة.

ونستطيع إجمال أسباب ظهور حركة الوضع في الحديث في الكوفة فيما يلي:

١- ظهور الشيعة في الكوفة، واتخاذهم الكوفة مستقرًا ومركزًا لهم، وقد كانوا أشد الفرق حرصًا على تأييد مذهبهم بكل الوسائل الممكنة، حتى وصل بهم الأمر إلى استخدام وضع الأحاديث على النبي ﷺ، وأصدق رصد لذلك ما ذكره ابن أبى الحديد قائلا: "واعلم أن أصل

---

(١) انظر: البيئة الثقافية (ص٥٦).

الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة، فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم، حملهم على وضعها عداوة خصومهم"[1] ورصد الشعبي ذلك بكل دقة فيقول: ما كذب على أحد من هذه الأمة، ما كُذِبَ على عليٍّ [2].

٢- كثرة الأخلاط من غير العرب في الكوفة، ويظهر هذا بمراجعة عناصر السكان السابق ذكرها.

وهذه الأخلاط كان فيها العبيد والموالى الباحثون عن مكانة لهم في المجتمع الكوفي، فأدى ذلك لوضع أحاديث في فضل البلاد التي قدموا منها.

وبجانب ذلك يمكن أن نضيف أنهم كانوا يتصفون بعدم تمكن الإيمان من قلوبهم؛ ولذا لم يكونوا يتحرجون من وضع الحديث[3].

٣- وكانت الخلافات في الاعتقاد والفكر تلعب دورًا أيضًا في وضع الحديث[4] فكما كان ظهور الشيعة من أهم أسباب الوضع، كان المتعصبون من أهل الفرق الأخرى كالخوارج والمرجئة يدفعهم تعصبهم لوضع الأحاديث المؤدية لمذهبهم.

بل يذهب بعض الباحثين لأبعد من ذلك، وأن ظهور مدرسة الحديث سبب في ظهور الوضع في الحديث، حيث يقول بعد الانتهاء من ذكر

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (ج ٢، ص ١٧) دار الكتب العربية الكبرى، مصر سنة ١٣٢٩هـ.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥٤/٤).

(٣) انظر: ضحى الإسلام، لأحمد أمين، ج ٢، ص ١٥٢.

(٤) انظر: فجر الإسلام، أحمد أمين (ص ٢١٤ - ٢١٥).

مميزاتها: "وكانت هذه المدرسة كما أسلفنا سببًا غير مباشر لوضع الحديث، فقد رأى قوم لا يتحرون الصدق أن هناك مسائل كثيرة جدًّا لم يرد فيها نص، ورأوا أعلام مدرستهم لا تُقدم على الرأي تحل به المشاكل فوضعوا الأحاديث الكثيرة يغطون بها الموقف"[1].

وأرى أن هذا الأمر يصعب تصوره في الفترة المصاحبة لمدرسة الرأي لأمرين:

١- أن الخلاف الفقهي لم يصل إلى حد التعصب الذي ظهر بقوة في عصر تقليد المذاهب، بل كان الانتماء في غالب أمره في المدرسة الفقهية للشيخ من الصحابة كعمر وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وكان الخلاف بين المنتمين لمدرستي الرأي والحديث لم يصل لدرجة وضع الحديث لتأييد الآراء، بل غاية الأمر التحمس لفكر فقهي معين يسيطر على هذه المدرسة أو تلك.

٢- أن الأدلة التي ذكرها بعض الباحثين كلها تنصب على الحديث عن المذاهب الفقهية، والتعصب المصاحب لها، والانتصار لفكرها، واستدل على ذلك بما بين أيدينا من كتب السادة الحنفية وأنك لا تجد فرعًا بها إلا وفيه حديث وقد نبه العلماء على ضعف كثير مما ورد في هذه الكتب[2].

ويظهر من الاستدلال السابق أن المقصود بكونه سببًا في وضع الحديث ليس الخلاف الفقهي الدائر ين مدرستي الرأي والحديث، بل الخلاف

---

(١) انظر: فجر الإسلام، لأحمد أمين (ص ٢٣٤، ٢٤٤).

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

الدائر بين المذاهب الفقهية التي ظهرت قبل نهاية العصر الأموي، وقد تابع هذا الباحث آخرون على رأيه[1].

وما سبق لا يعنى أن الإنتاج العلمي للكوفة في مجال علم الحديث انصبَّ على جانب الوضع في الأحاديث على النبي ﷺ بل ظهر بالكوفة أعلام اشتهروا بالتمكن من أدوات علم الحديث يُعدُّ أشهرهم إبراهيم النخعي الذي أطلقوا عليه لقب "صيرفي الحديث"[2] لمعرفته بصحيحه من سقيمه، مع طرق الكشف عنهما.

وكذلك ظهر عامر بن شراحيل الشعبي، بما عرف عنه من الاهتمام الكبير برواية الحديث والتثبت فيها[3].

ثالثًا: علم الفقه:

تمهيد: الفقه الإسلامي علم يتسم بالمرونة إلى حد بعيد بما يضمن استمرارية تطوره ليكون صالحًا لكل زمان ومكان.

وكانت المراحل التي مرَّ بها الفقه الإسلامي تطبيقًا دقيقًا لما يتصف به الفقه الإسلامي من المرونة ووجود مساحة كبيرة للتطور.

---

(١) انظر: حياة الشعر في الكوفة، د/ يوسف خليف، ص٢٥٨، وأرى أن الدكتور/ يوسف خليف يتبنى رأى الأستاذ أحمد أمين، ولكن جانبه الصواب في تحديد قصده، ودليل ذلك وضعه كتاب فجر الإسلام كمرجع لهذه الفكرة.

(٢) حلية الأولياء، لأبى نعيم (ج ٤، ص ٢١٩)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (ج٤، ص٥٢١).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٣٠١، وتاريخ الفسوي، للفسوي (ج٣، ص٣٧٢)، وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (ج ١٢، ص ٢٢٩).

ولقد حمل المؤرخون لتاريخ الفقه الإسلامي على عاتقهم تحديد المراحل التي مرَّ بها الفقه الإسلامي، ولكن تعددت التقسيمات والتحديدات، ولكني أرى أوفقها تقسيم المراحل التي مرَّ بها الفقه الإسلامي لمراحل تتناسب مع طبيعة الإنتاج الفقهي في كل مرحلة، وفي نظري أن أفضل تقسيم تتحقق له هذه المناسبة، وهو الذي يقسم الأطوار التي مرَّ بها الفقه الإسلامي إلى الآن إلى ثلاثة أطوار هي:

١- طور النشأة.

٢- طور النهضة.

٣- طور الاسترخاء[1].

فطور النشأة هو الطور الممتد من وفاة الرسول ﷺ إلى بداية ظهور المذاهب، وبالتحديد بظهور مذهب أبي حنيفة.

وطور النهضة هو الذي يبدأ بانتهاء طور النشأة وبظهور أول المذاهب الفقهية وهو مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله، وينتهي مع مطلع القرن الرابع عندما ظهر مذهب ابن جرير الطبري.

وطور الاسترخاء هو الطور الذي بدأ بانتهاء طور النهضة واستمر حتى العصر الحديث باستثناء بعض المحاولات التي تغير من صورته المتسمية بالاسترخاء[2].

---

(١) انظر: الحركة الفقهية الإسلامية، دراسة تحليلية تاريخية، د / محمد مصطفى البابي، مطبعة السباعي، سنة ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م (ص ٧٢)

(٢) انظر: المرجع السابق (ص ٧٣، ٢١١، ٣٢٩).

ولا يتسع البحث للحديث بالتفصيل عن كل طور من هذه الأطوار، ولكن يبقى أن يهتم البحث بالطور الذي عاش فيه شريح القاضي، ألا وهو طور النشأة.

❁ الفقه في الكوفة في طور النشأة:

يعتبر ظهور المدارس الفقهية أبرز الأحداث في الطور الأول من أطوال الفقه الإسلامي.

ولقد قدمت الكوفة للفقه الإسلامي خدمة جليلة حين أسهمت في ظهور إحدى هذه المدارس بها؛ وذلك عندما تهيَّأت بيئتها لظهور مدرسة الرأي التي هي إحدى المدرستين اللتين شكلتا الفكر الفقهي الذي أنشأ طور النشأة، الذي خرج به الفقه من مرحلة التلقي المباشر للأحكام الفقهية من صاحب التشريع محمد ﷺ إلى طور يكون للمجتهدين فيه دور في استنباط الأحكام مع اختلاف طرق استنباطهم لها.

وهذا الاختلاف في طرق استنباط الأحكام الشرعية الواقع بين أوائل المجتهدين من الصحابة نشأ لأسباب كثيرة أجملها في:

١- اختلاف الظروف المصاحبة لفكر كل مجتهد من الصحابة بعد هجرتهم إلى الأمصار، وهذا بعدما سمح الخليفة عمر بن الخطاب للصحابة بالهجرة للأمصار المفتوحة لتعليم المسلمين أمور دينهم، ولإدارة شئون هذه الأمصار[1].

---

(١) انظر: المنقى في تاريخ التشريع الإسلامي، لمحمد أنيس عبادة (ص١٢٨،١٢٧).

٢- واختلاف الصحابة في درجة الذكاء والحفظ، بل وتفاوتهم أيضًا في فهم وتفسير النصوص[1]. وهذا حدث كثيرًا حتى في عصر النبي ﷺ عندما قال: «**لا يصلين أحدكم إلا في بني قريظة**» فمن الصحابة من فهم من هذا النص تأخير الصلاة لحين الوصول لبنى قريظة فيصلى هناك، وهذا من تمسك بظاهر النص، وهناك من حاول الوصول للغرض أن النبي ﷺ لم يقصد بذلك أن يؤخروا صلاة العصر لحين وصولهم لبني قريظة، بل قصد الإسراع في السير لبني قريظة[2].

فأنتجت هذه الأسباب السابقة مناهج وطرقًا مختلفة في استنباط الأحكام الشرعية، وهذه الطرق هي ما اصطلح على تسميتها في هذا القرن باسم "المدارس الفقهية"[3].

وقد تعددت المدارس الفقهية، واختلفت الأقوال في عددها وأماكن ظهورها[4] ولكن الرأي الذي نراه موافقًا للواقع الفقهي في هذا العصر التي نشأت فيه: أنها انحصرت في مدرستين هما: مدرسة الرأي، وأغلب فقهائها بالكوفة ومدرسة الحديث، وأغلب فقهائها بالمدينة[5].

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) انظر: المدخل للفقه الإسلامي، لمحمد سلام مدكور (ص ١١٨)، ط١، سنة ١٣٨٢هـ، ١٩٦٢م.

(٣) وكان يطلق على هذه المناهج والاتجاهات من قبل لفظ (أصحاب) فيقال: أصحاب الرأي، وأصحاب الحديث، أو لفظ (أهل) فيقال: أهل الرأي أو أهل الحديث، انظر: الحركة الفقهية الإسلامية، لمحمد مصطفى إمبابي (ص ١١٤).

(٤) انظر: المرجع السابق (ص ١١٦ - ١٢٢).

(٥) انظر: المرجع السابق (ص ١١٩).

وقد تضافرت عوامل هيأت لمدرسة الرأي أن تظهر في الكوفة ومن هذه العوامل:

١- تعدد الثقافات وتلاقى الحضارات بها، وهذا التلون الثقافي والحضاري هو ما جعل العقلية الكوفية تختلف اختلافًا شديدًا عن العقليتين المدنية والمكية، فالعقلية الكوفية تتسم بسعة ثقافتها، مما جعلها أكثر مرونة وأشد استجابة لعوامل التطور وأقدر على التكيف والملاءمة مع ما يحيط بها من ظروف حضارية وثقافية، فلم يتحرج أهل الكوفة من استخدام الرأي الذي يحقق لها ما يتوافق مع صفاتهم السابق ذكرها[1].

٢- طبيعة الحياة الاجتماعية في الكوفة المتمثلة في تعدد عناصر السكان فيها مما شكل نوعًا من الاختلاف الطبقي، مما أدى لتباين أساليب الحياة، وظهور أنواع من المشكلات لم تكن معهودة من قبل للفقهاء الأولين، فدفعهم ذلك للاعتماد على عقولهم في حل هذه المشكلات ومحاولة استنباط الأحكام عن طريق الاجتهاد بحثًا عن حل لهذه المشكلات، وبهذا صارت مدرسة الرأي مرنة قابلة للتجديد ولمواجهة المشكلات التي قد تظهر في المجتمع الإسلامي لأول مرة[2].

٣- قلة رواية الحديث بالكوفة، مع انشغال أهلها بالقرآن الكريم، فصارت حصيلة أهل الكوفة من النصوص: الكتاب وعدد قليل من الأحاديث، فلم يكن هناك بد من اعتمادهم على القياس والرأي[3].

---

(١) انظر: حياة الشعر في الكوفة، يوسف خليف (ص ٢٥٢).

(٢) انظر :أبو حنيفة، لأبي زهرة (ص ٢٣٦، ص٣٥٠ - ٣٥٧)، وحياة الشعر في الكوفة، يوسف خليف (ص ٢٥٢ - ٢٥٣).

(٣) انظر: السلطات الثلاث في الإسلام، عبد الوهاب خلاف (ص ٥٨٣).

٤- أن معلم الكوفة الذي كان يتميز باتجاهه في الناحية التشريعية إلى الاجتهاد واستعمال الرأي، ولاشك أن ابن مسعود تأثر بفكر الإمام عمر الفقهي، وقد أثر ابن مسعود بدوره في العملية الفقهية بالكوفة، وفى تلامذته الذين كان لهم ولمدرستهم التي أرسى قواعدها الإمامان عمر وابن مسعود فكان لهذه المدرسة الأثر العظيم في الفكر الفقهي بالكوفة إذ جعلته يتجه للإكثار من استخدام القياس والرأي كوسيلة من وسائل استنباط الأحكام الشرعية[1].

❁ رابعًا: علوم اللغة:

لقد كان للكوفة دور كبير في اللغة وتطورها، حيث لاقت اللغة اهتمامًا واسعًا من علماء الكوفة في القرن الأول الهجري.

وأرى أن هذا الاهتمام الواسع باللغة يرجع لأمور أهمها:

١- وجود القبائل العربية بكثرة في الكوفة مما كان سببًا في قيام أهل اللغة بجمع أشعار العرب وأنبائهم وأخبارهم، وذلك لتوافر مادتها التي كان يحافظ عليها العرب المقاتلون الذين سكنوا الكوفة.

بل وكان العدد الكبير للقبائل سببًا في تفنن العلماء في جمع أشعارهم وأخبارهم، فقام أبو عمرو الشيباني مثلا بجمع شعر القبائل العربية كل قبيلة على حدة في كتاب مستقل، ويعتبر هذا العمل الذي قام به أبو عمرو الشيباني "أهم عمل علمي منظم متكامل يستحق التنويه به"[2].

---

(١) انظر: المرجع السابق (ص ٥٨٦).

(٢) حياة الشعر في الكوفة، د/ يوسف خليف (ص ٢٥٣).

٢- وقد أدى وجود الموالى والعبيد إلى نوع من التنافس الشديد بين الموالى الذين يريدون إثبات وجودهم ونفى النظرة الدونية عن أنفسهم؛ وذلك بإتقان اللغة وفنونها، وبين علماء العرب الذين اهتموا باللغة وفنونها.

أضف إلى ذلك أن النخاسين كانوا يتفنون في تعليم العبيد الذين يشتروهم الرواية للشعر والأدب وفنونًا كثيرة فساعد ذلك هؤلاء العبيد على أن يهتموا باللغة وبجمعها وآدابها.

وكان من أشهر الموالى الذين اهتموا بعلوم اللغة ورواية الشعر والعلم به حتى عَّده الزبيدي في الطبقة الأولى من لغويي الكوفة أبو البلاد الكوفي الذي كان مولى لعبد الله بن غطفان، فكان أروى أهل الكوفة وأعلمهم، وكان أعمى جيد اللسان[1].

٣- اهتم علماء اللغة والحريصون على الحفاظ على اللغة العربية بجمع اللغة خوفًا عليها من الاختلاط والضياع وذلك بعد اختلاط العرب المقاتلين الساكنين للكوفة بغيرهم من أهل الألسنة الأخرى.

ولكنَّ كل هذا الاهتمام باللغة لم يمنع من وقوع تأثر للغة العربية بأخلاط اللغات الأخرى التي كان يتحدث بها الموالى، فقد أدخلوا ألفاظًا ومفردات فارسية أكثرها تتصل بالأسماء والأطعمة والأشربة وأدوات الترف واللهو، وأصبحت هذه المفردات شائعة بالكوفة فمن ذلك

---

(١) انظر: المعارف لابن قتيبة (ص٥٤١)، دار المعارف بمصر.

إطلاقهم على مفترق الطرق (جهار سوج) وأضيف هذا اللفظ للأسماء العربية فصاروا يقولون: (جهار سوج خنيس) (جهار سوج كندة)[1].

ولقد رصد البلاذري ذلك حين قال: "كان بالكوفة موضع يعرف (بعنترة الحجام) وكن أسود فلما دخل أهل خراسان الكوفة كانوا يقولون (حجام عنترة) وحجام فرج فبقى الناس على ذلك"[2].

ونص البلاذري يوضح أن تأثيرهم لم يتوقف عند إدخال المفردات، بل تعداه لبعض التراكيب.

وأوضح من ذلك ما عرف من انتشار اللكنة الفارسية بين العرب وكثرة اللحن. حتى كان أشهر من اشتهروا باللكنة الفارسية عبيد الله ابن زياد والى العراق.

ويوضح أثرهم أيضًا على اللسان العربي في الكوفة موقف الشعبي من بعض الموالى حين مر بهم يتذاكرون النحو العربي، فقال لهم "لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده"[3].

---

(١) جهار سوج لفظ فارسي معناه الأربع جهات؛ لأن كلمة (جهار) معناها (أربعة) وكلمة (سوج) معناها (اتجاه أو جهة)، انظر: خطط الكوفة، ماسنيون (ص١٨)، والطبقات الكبرى لابن سعد (ج٦، ص ٨، ٢٣).

(٢) انظر: فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٨١).

(٣) انظر: الكامل للمبرد (ج٢، ص ٤٠٥)، والعقد الفريد لابن عبد ربه (ج٣، ص٤١٥).

❁ المسألة الثالثة: أثر البيئة العلمية التي عاش فيها شريح القاضي في منهجه الفقهي:

إن تعدد الثقافات التي شهدتها الكوفة أثرت بلا شك في فقهائها، ومن هؤلاء الفقهاء الإمام شريح القاضي، ويمكن أن نرصد تأثير البيئة العلمية والثقافية بالكوفة في منهج شريح القاضي الفقهي من خلال هذه المظاهر:

١- أنَّ البيئة العلمية التي تميزت بها الكوفة وخاصة في علمي القراءات والحديث أثرت في منهج الإمام شريح القاضي فتسبب الاهتمام بعلم القراءات، وظهور ظاهرة الوضع في الحديث في حرص الإمام شريح القاضي على التثبت في الأخذ بالنصوص ومما يدلُّ على ذلك:

أ - ما ورد عن الإمام شريح القاضي من رده بعض القراءات من قبل الدراية وذلك في قوله ﷻ في سورة الصافات: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾[1] فقرأها بفتح تاء (عجبتَ)، فلمَّا ذكروا له أن غيره من قُراء الكوفة يقرؤونها بالضم، قال: "إنما يعجب من لا يعلم"[2].

ب- وما روى عنه أنه قال: سمعنا قبل أن تلطخ الأحاديث [3]أي أنه سمع الحديث الشريف قبل تلطخ الأحاديث بما صاحب الفتنة التي وقعت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ﷺ مما تتسبب في ظهور الخوارج والشيعة الذين ظهرت على أيديهم ظاهرة الوضع.

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٢.
(٢) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/٢١٠).
(٣) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/٢٠٣).

ومما سبق يتضح أن البيئة الحديثية بالكوفة قد أثرت في منهج شريح الفقهي وخاصة في موقفه من إثبات النصوص بحيث جعلته منتبهًا لقضية الوضع وهذا ما يظهر من قوله: قبل أن تلطخ الأحاديث.

٢- أن البيئة التي سيطرت على الفكر الفقهي بالكوفة كانت تتميز بأعمال الرأي بصورة أوضح من مثيلتها في المدينة التي كانت تتميز بالتمسك الحديث أكثر من مثيلتها في الكوفة.

وهذه البيئة الفقهية لاشك أثر في منهج شريح القاضي الفقهي فجعلته من أصحاب مدرسة الرأي، بل ووصفه أحد الأساتذة بأنه الذي مثل الجانب التطبيقي أو العملي للفكر الفقهي لأصحاب مدرسة الرأي[1].

وبلا شك أن هذا الميل إلى مدرسة الرأي أثر في منهج شريح القاضي وبخاصة في موقفه من قضايا فهم النصوص، والإلحاق والاستدلال، تلك القضايا التي يظهر فيها بجلاء ما تتميز به مدرسة الرأي عن غيرها، وهذا ما سنلاحظه فيما بعد عند الدراسة التفصيلية لموقف شريح القاضي من هذه القضايا في الفصول المعقودة لها.

٣- وأن البيئة اللغوية التي عاش فيها الإمام شريح القاضي كانت تحمل ظاهرتين: الأولى: بداية انتشار اللحن واللكنة في ألسنة الناس -وطائفة الحكَّام بصفة خاصة-، والثانية: الاهتمام بدراسة علوم اللغة بصورة واضحة، ولم يكن هذا الاهتمام على مستوى العرب الذين يريدون الحفاظ على لغتهم من اللحن، بل كان أيضًا ومن الموالي أيضًا الذين برع عدد منهم في دراسة اللغة وعلومها.

---

(١) انظر: الحركة الفقهية الإسلامية د. إمبابي (ص١٧٤).

ولقد كان الإمام شريح القاضي ممن عرفوا بالفصاحة فلم يعهد عليه لحنٌ قط، وكانت له أشعار في معان حسان[1].

ويدلُّ على تمكن الإمام شريح القاضي في اللغة استشهاد علماء اللغة بكلامه سواء أكانوا من علماء العصور الأولى أم أكانوا ممن بعدهم.

فمن ذلك ما رواه وكيع من أن حمادًا -ولعله الراوية- سأل أبا عمرو بن العلاء عن قول شريح في الغلول، فدعا لجارية له سوداء عليها قميص تحته غلالة، فقال لها أبو عمرو: ما هذا تحت قميصك ؟ فأخرجت كُمَّ الغلالة، فقال أبو عمرو: أنه المستخفي به، والمغلول منه".

فهذا السؤال من حماد يكشف عن حرصه على معرفة معنى الغلول عند شريح القاضي مما يعني أنه يتصف بالفصاحة وعدم اللحن حتى أننا نرى علماء اللغة حريصين على البحث على معنى بعض الألفاظ عنده.

وبل وإجابة أبي عمرو بن العلاء تكشف عن معرفته بمعنى هذه الكلمة عند شريح القاضي، وهذا يعني أن له اهتمامًا خاصًّا بكلام الإمام شريح.

ثُمَّ جاء من بعد هؤلاء العلماء المصنفون في علوم اللغة وخاصة غريبها ليجدهم يهتمون اهتمامًا خاصًّا بالقاضي شريح وكلامه حتى يستطيع المطالع لبعض كتب الغريب "كالنهاية" لابن الأثير، "والفائق" للزمخشري أن يلحظ بسهولة هذا الاهتمام.

فكتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" للعلامة ابن الأثير استشهد فيه صاحبه بكلام شريح في ستة وأربعين موضعًا، وهذا الكم كبير إذا ما

---

(١) انظر: تهذيب الكمال للمزي (٤٣٨/١٢).

قورن بما احتج واستشهد به من كلام أقران شريح القاضي كعبيدة والحارث والأسود وعلقمة.

وأما كتاب "الفائق في غريب الحديث" للعلامة الزمخشري فقد استشهد فيه صاحبه بكلام شريح القاضي في واحد وثلاثين موضعًا.

وهذه الأرقام إن كانت تنمى فهي إنما تنمى عن اهتمام علماء اللغة بكلام شريح القاضي.

obeikandl.com

المبحث الثالث

مكوناته الثقافية ومكانته العلمية

ويشتمل على:

❁ **تمهيد: سؤالان:**

❁ **المطلب الأول:** مكوناته الثقافية:

ويشتمل على:

أولا: المسألة الأولى: ذكر شيوخه.

١- عمر بن الخطاب ﷺ. ٢- عبد الله بن مسعود ﷺ.

٢- علي بن أبي طالب ﷺ. ٤- معاذ بن جبل ﷺ.

ثانيًا: المسألة الثانية: ذكر أقرانه:

١- علقمة بن قيس -رحمه الله. ٢- الأسود بن يزيد -رحمه الله.

٣- مسروق بن الأجدع-رحمه الله. ٤- عبيدة السلماني -رحمه الله.

٥- عمرو بن شرحبيل -رحمه الله. ٦- الحارث الأعور -رحمه الله.

ثالثًا: المسألة الثالثة: ذكر تلامذته:

١- إبراهيم بن يزيد النخعي -رحمه الله. ٢- عامر بن شراحيل -رحمه الله.

٣- محمد بن سيرين -رحمه الله. ٤- الحكم بن عتيبة -رحمه الله.

❁ **المطلب الثاني: مكانته العلمية:**

المسألة الأولى: أقوال العلماء فيه (الصحابة والتابعين).

المسألة الثانية: أقوال العلماء في اجتهاده.

المسألة الثالثة: أقوالهم في الاحتجاج بآرائه.

المسألة الرابعة: توليه القضاء.

المسألة الخامسة: تصنيفهم في أقضياته.

obeikandl.com

تمهيد: سؤالان:

إن الفقه الإسلامي علم له صفات تميزه عن سائر الجهود التشريعية التي بذلها فقهاء التشريعات الوضعية، وتُعَدُّ أهم هذه الصفات احتواؤه على قدر كبير من المرونة المستمدة من روح التشريع الإسلامي الذي جاء الفقه علم خادم له.

وهذه المرونة هي التي جعلت الفقه الإسلامي دائم التطور ليواكب المتغيرات التي تحيطه في البيئات المختلفة، فبدأ الفقه أول مراحله بعد وفاة الرسول ﷺ الذي كان يعيش التشريع في حياته حياة التلقي المباشر منه ﷺ، وبعد وفاته بدأت أول مراحل التاريخ الفقهي الإسلامي، ألا وهى مرحلة النشأة، وكانت السمة البارزة في هذه المرحلة ظهور مدرستين هما مدرستا الرأي، والحديث، تحاولان الوصول للأحكام الشرعية، ولكن لكل منهما وسائلها التي تخالف وسائل أختها وإن اتفقتا في عدد من المصادر التي يعتمد عليها في استنباط الأحكام الشرعية.

ولقد عاش شريح في هذه المرحلة -مرحلة المدارس الفقهية- فكان من الطبيعي أن يرد سؤال يستفسر فيه عن انتماء شريح لإحدى المدرستين وهذا هو السؤال الأول:

لأى من المدرستين كان شريح ينتمي؟

وابتداء أشير إلى أن الإجابة على هذا السؤال ستعتمد على كتب تاريخ الفقه الإسلامي؛ لأنني أرى أن النسبة لأحد المدرستين تكون أكثر صحة عندما يختتم بها البحث؛ وذلك لأن النسبة لمدرسة من المدرستين تكون نتيجة اشتراك الفقيه موضع الدراسة جهوده الفقهية مع جهود فقهاء

آخرين في سمات معينة، وهذه السمات تعتبر هي النزعات المسيطرة على المدرسة التي ينتمون إليها.

ويكاد يجمع المصنفون في تاريخ الحركة الفقهية الإسلامية على نسبة شريح لمدرسة الرأي [1] وأنه يمثل الجانب التطبيقي في هذه المدرسة.

❁ بل إن وصفه بميله الشديد للرأي، فيقول أحدهم:

"برز في مدرسة ابن مسعود فقيه الرأي فطاحل الفقهاء، فهذا شريح الكندي الذي مارس القضاء حقبة من الزمن مع ميله الشديد للأخذ بالرأي"[2].

فشريح إذن لم يكن فقيهًا كسائر الفقهاء في مدرسة الرأي، بل تميز بقضائه مدة لم يسمع أن قاضيًا قضى مثلها، وهذا -بلا شك- سيجعله أكثر تفاعلا مع النوازل التي تعرض عليه؛ ولذا قال عنه بعض الباحثين:

"وشريح في مدرسة الرأي يعبر عن الجانب العملي فيها، بحكم اتصاله بالناس واحتكاكه المستمر بقضاياهم وشئونهم؛ ولذا فقد كان أكثر

---

(١) يجب أن أذكر أن اصطلاح (مدرسة) لم يظهر إلا في القرن الحالي (راجع تاريخ الحركة الفقهية الإسلامية: ١١٤)، ولذا فعندما أذكر مصطلح (المدرسة) فأعني من صنف في التاريخ الفقهي معنى المحدثين، وراجع نسبة شريح لمدرسة الرأي في المدخل للفقه الإسلامي، لسلام مدكور (ص ١٢٦)، وتاريخ الحركة الفقهية الإسلامية (ص١٧٤).

(٢) انظر: المدخل للفقه الإسلامي (تاريخه ومصادره ونظرياته العامة)، د/ محمد سلام مدكور، الناشر دار النهضة العربية، ط ٤، سنة ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩ م (ص ١٤٢).

الفقهاء خدمة لمدرسة الرأي؛ لاعتماده في خدمتها على الجانب العملي الواقعي، لا الجانب النظري المجرد، كما كان الشأن في أقرانه وزملائه"[1].

فالكلام السابق يوضح أن شريحًا لم يكن فقيهًا كسائر أقرانه من الفقهاء، بل تميز عنهم بالجانب العملي الذي أتقنه فترك لنا تراثًا قضائيًا عظيمًا لا يقل أهمية عن التراث الفقهي لأقرانه، بل قد يفوقه.

وبهذا أكون أوجزت الإجابة عن السؤال الأول المستفهم فيه عن انتماء شريح لإحدى المدرستين، وبينت في الإجابة أن شريحًا كان من فقهاء مدرسة الرأي، وكان عنصرًا فعَّالا فيها، يمدُّ فكرها بتطبيق عملي حصيف فيربطها وفكرها بالواقع المعاش.

۞ وبعد التقرير السابق يتبادر إلى الذهن السؤال الثاني وهو:

لماذا أتحدث عن علاقة شريح بعلماء مدرسة الرأي، وما علاقة هذا الحديث بدراسة منهج شريح؟

وهذا السؤال يحتوى على نقطتين هما:

١- سبب التحدث عن علاقة شريح بعلماء مدرسة الرأي، وهو أن انتماء شريح لمدرسة الرأي يكون حاملا للنزعات والسمات المسيطرة على هذه المدرسة وبهذا يشارك غيره من فقهاء نفس المدرسة في سيطرة سماتها ونزعاتها عليهم.

---

(١) انظر: الحركة الفقهية الإسلامية، د/ محمد مصطفى إمبابي، مطبعة السباعي، ط١، سنة ١٩٨٣م، ١٤٠٤هـ.

ومن خلال هذا الاشتراك بين شريح وغيره من فقهاء مدرسة الرأي يمكن أن يقع التأثير والتأثر، فيتأثر بشيوخه وأقرانه، ويؤثر في تلاميذه، ولا يبعد أن يؤثر أيضًا في أقرانه.

ولكن من المستبعد أن يتأثر شريح بفقهاء مدرسة الحديث الذين كانوا بالكوفة معه، لاختلاف المناهج.

وفي وسط هذا الزخم لمدرسة الرأي كان من المستبعد أن يتأثر شريح بفقهاء مدرسة الحديث الذين كانوا معه بالكوفة لاختلاف المناهج.

ومما سبق يتضح علاقة دراسة الصلة الجامعة بين شريح وفقهاء مدرسة الرأي وهى النقطة الثانية.

ففقهاء مدرسة الرأي بما فيهم شريح نسيج واحد وإن اختلفت أنواع الخيوط المستخدمة فيه، ولكنهم في نهاية المطاف فقهاء ينتمون لمدرسة واحدة؛ ولذا كانت دراسة الواحد منهم -فكره ومنهجه- صعب أن تستقل بنفسها لشدة ما بين أفكارهم من ترابط.

ولكن هذا لا يعنى أن شريحًا كان صدًى لفقهاء مدرسة الرأي، بل غاية الأمر أن شريحًا وفقهاء مدرسة الرأي تكاملت مناهجهم، ولذا أذكر باختصار العلاقة التي ربطت شريح بفقهاء مدرسة الرأي، سواء أكانوا شيوخه أم كانوا أقرانه وتلاميذه.

المسألة الأولى: ذكر شيوخه:

❁ ***بين يدي شيوخه:***

إن العلم صفة يكتسبها الإنسان بطرق متعددة ومختلفة، وهذه الطرق يكون لها أثر بالغ في اتسام العلم بسمات تجعله محمودًا أو مذمومًا.

ومن أهم الطرق التي يكتسب بها العلم العلاقة التي تربط بين الشيخ وتلميذه، فيتعلم من خلال هذه الطريقة التلميذ من شيخه أدوات ومهارات هذه الحرفة العظيمة، حرفة العلم؛ ولهذا السبب جعل العلماء من أدوات العلم "الشيخ الفتاح" الذي يفتح مغاليق العلم لطلابه.

ولما كان العلم في جانب تعلم التلميذ مهارات وأدوات العلم من شيخه يتشابه في ذلك مع الصناعات والحرف، عَدَّه العالم الاجتماعي ابن خلدون في جملة الصناعات الدينية[1].

ومن خلال هذه الفكرة السابقة عن حركة العلم وتحصيل أدواته نستطيع أن نقرر أن الشيوخ يكون لهم أثر لا يمكن التغافل عنه عند دراسة فكر ومناهج تلامذتهم ومناهجهم، ويمكن لنا من خلال النظر في فقه الشيوخ إقامة دراسات مقارنة تكشف عما يمكن أن يضيفه التلميذ لفكر شيخه أو ما يمكن أن يقصر فيه.

وهذه الدراسة لا تستطيع أن توفِّي ذلك بالدراسة؛ لأن الدراسة قائمة على البحث في فكر ومنهج شريح؛ وذلك بتوضيح ما بذله من جهد ذهني وفكري بجانب التطبيق العملي لخدمة العملية الفقهية الإسلامية، ولكنَّ هذا لا يعني أن أنحى الكلام عن شيوخه، بل سأتكلم عنهم وعن تأثيرهم المتوقع في فكر شريح بصورة عامة، مركزًا على جوانب التأثير التي تحتوى على أفكار منهجية من شأنها التأثير في منهج شريح.

---

(١) مقدمة ابن خلدون لابن خلدون، المكتبة التجارية الكبرى، ص٤٣٠.

وذلك مع الحرص على ذكر الشيوخ الذين يثبت تلقيه عليهم أو تقوم دلالات وثيقة على تلقيه، ولكن لم تأت نصوص تصرح بذلك، إلا عن بعض العلماء، كالحال في شيخه معاذ بن جبل ﷺ.

وهذا بجانب ترتيبي لذكر المشايخ بحسب قوة التأثير وضعفه في منهج شريح؛ ولذا بدأت بعمر بن الخطاب، ثم ثنيت بعبد الله بن مسعود، ثم ثلثت بعليٍّ بن أبي طالب، وختم الحديث بالكلام على معاذ بن جبل ﷺ.

obeikandl.com

(١)

الفاروق

عمر بن الخطاب[1]

❁ هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العُزَّى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوى أبو حفص أمير المؤمنين.

أسلم بمكة قديمًا، وهاجر إلى المدينة قبل رسول الله ﷺ وشهد بدرًا والمشاهد كلها وولى الخلافة عشر سنين وخمسة أشهر، وقتل سنة ثلاث وعشرين، وهو ابن ثلاث وستين سنة.

قال فيه رسول الله ﷺ: «**إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه**»[2]، ونزل القرآن في أسرى بدر، وفى الحجاب، وفى تحريم الخمر، وفى مقام إبراهيم مؤيدًا لرأيه.

ومناقبه كثيرة عظيمة، وعلمه وفقهه واسع عميق، قال فيه عبد الله بن مسعود: "لو وضع علم أحياء العرب في كفة ميزان، ووضع علم عُمر في

---

(١) انظر: ترجمته في: تاريخ الدوري (٤٢٧/٢)، أخبار القضاة (١٠٥/١، ٢/ ١٨٤، ١٩١)، الاستيعاب (١١٤٤/٣)، الجرح والتعديل (٦/ ترجمة ٥٥٨)، تهذيب الكمال (٢١/ ٣١٦-٣٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ح٣٦٨٢) وأحمد في مسنده (٢/ ٥٣) من حديث ابن عمر، والحاكم في مستدركه (٣/ ٨٦، ٨٧).

كفة لرجح علمُ عُمر، ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم، ولمجلس كنت أجلسه مع عمر أوثق في نفسي من عمل سنة"[1].

ولقد كان إنزال الصحابة لعمر في أعلى المنازل في الفقه والعلم فكان ابن جرير الطبري يصف أحد علماء الصحابة وهو ابن مسعود وحاله مع عمر ﷺ فيقول: "كان ابن مسعود يترك مذهبه وقوله لقول عمر ولا يكاد يخالفه في شيء من مذهبه ويرجع من قوله إلى قوله"[2].

ويقول الشعبي في متابعة ابن مسعود لعمر أيضًا: "كان عبد الله ابن مسعود لا يقنت ولو قنت عمر لقنت عبد الله بن مسعود"[3].

ولقد كان هذا الإجلال من الصحابة لعمر ﷺ؛ لما عرفوه من فقهه وتواضعه وإخلاصه، وكيف لا يكون في هذه المكانة وقد نزل القرآن الكريم مؤيدًا لرأيه أكثر من مرة منها ما كان في أسرى بدر، وحجاب نساء النبي ﷺ، وفى الصلاة في مقام إبراهيم.

وكان عمر ﷺ عنه فقيهًا فريدًا، له نظرة ثاقبة في المسائل التي تعرض عليه حتى صار له منهج مكَّنه من مواجهة كثير من النوازل التي جَدَّت في عصره.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٨٦)، وذكره المزي في تهذيب الكمال (٢١/ ٣٢٥).

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم (١/ ٢٠).

(٣) إعلام الموقعين لابن القيم (١/ ٢٠).

(٢)

عبد الله بن مسعود[1]

۞ هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن مخزوم أبو عبد الرحمن الهُذَلِيُّ صاحب رسول الله ﷺ، أسلم بمكة قديمًا، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد كلها، وكان ابن مسعود صاحب سرِّ رسول الله ﷺ ووساده وسواكه ونعله وطهوره[2]، وكان لا يفارقه في سفر ولا حضر ولا سلم ولا حرب، حتى ظنَّه الصحابة واحدًا من أهل بيت النبي ﷺ، قال في ذلك أبو موسى الأشعري: "لقد رأيت رسول الله ﷺ ما أرى إلا ابن مسعود من أهله لقد كان يشهد إذا غبنا، ويؤذن إذا احتجبنا"[3].

وكانت لهذه المرافقة التامة لرسول الله ﷺ أثره العظيم في علو مرتبته في حفظ القرآن وفهمه للعلم. فكان يقول عن علمه بالقرآن: "والذي لا إله غيره أما من كتاب الله سورة، إلا أنا أعلم حيث نزلت وما من آية إلا أنا

---

(١) انظر ترجمته في: طبقات ابن سعد (٢/٣٤٢، ٣/١٥٠، ٦/ ١٣)، مصنف ابن أبي شيبة (١٣: ١٥٧٢٧، ١٥٧٨١، ١٥٧٩٣)، أنساب القريشين (٢٢٣، ٢٥٣، ٤٦٣)، سير أعلام النبلاء (١/٤٦١)، تاريخ بغداد (١/١٤٧)، أسد الغابة (٣/ ٢٥٦).

(٢) انظر: تهذيب الكمال (١٦ / ١٢٣)، وصفة الصفوة (٣/ ٣٩٥)، الآثار لأبي يوسف (أثر ٩٣٧)، والسير (١/ ٤٦٩)، وابن سعد (٣/ ١/ ١٠٨).

(٣) انظر: صفة الصفوة (١/ ٣٩٧)، وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن مسعود، وأمه – ح (٢٤٦١).

أعلم فيما أنزلت"[1]، وهذا العلم بكتاب الله مما يجعل رسول الله ﷺ يمدح قراءته حيث قال: «**من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا طريًّا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**»[2].

ومع هذا كان شديد التواضع، فكان يقول: "لقد علم أصحاب رسول الله أني أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم، ولو أعلم أن أحدًا أعلم مني لرحلت إليه"[3].

وقد مدحه الصحابة مدحًا عظيمًا، فقال فيه عليٌّ: "علم القرآن وعلم السنة ثم انتهى، وكفى به علمًا"[4]، وقال فيه أبو مسعود البدري الأنصاري: "ما أعلم رسول الله ﷺ ترك بعده أعلم بما أنزل الله من ابن مسعود"[5]. وقال أبو موسى الأشعري: "لا تسألوني ما دام هذا الحبر -يعني ابن مسعود- فيكم"[6].

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل ابن مسعود... (ح٢٤٦٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٤٤٥)، وأخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب مقدمتها، باب فضل عبد الله بن مسعود (ح ١٣٨) أن أبا بكر وعمر ﷺ بشراه - وأخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٢٢٧ - ٣/ ٣١٨)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل ابن مسعود... (ح٢٤٦٢).

(٤) انظر: حلية الأولياء (١/ ١٢٩)، صفة الصفوة (١/ ٤٠١).

(٥) انظر: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل ابن مسعود...، ح(٢٤٦١)

(٦) انظر: حلية الأولياء (١/ ١٢٩)، وصفة الصفوة (١/ ٤٠٣).

ولكن عبد الله بن مسعود مع سعة علمه التي سبق الإشارة إليها -كان كثير المدح لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب- على النحو الذي أوردته في ترجمة عمر ﷺ، مما جعل بعض المترجمين يغتر بهذا المدح، مع ما ظهر من موافقة ابن مسعود لعمر ﷺ في بعض اجتهاداته، جعلهم ذلك يظنون أن ابن مسعود لا يعدو أن يكون ظلا لعمر يقول بقوله ويترك مذهبه لمذهب عمر[1].

والمتتبع لفقه عبد الله بن مسعود يجده، نعم يوافق عمر بن الخطاب، ولكنها موافقة لأسباب عديدة، وليست بسبب التقليد فحسب، فمن هذه الأسباب مثلا:

١- أن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وله أن يجتهد في مسألة عامة ويرسل باجتهاده هذا للأمصار؛ لأن هذا الاجتهاد من عمر ﷺ اجتهاد يخص المصلحة العامة لأفراد المجتمع الإسلامي، وكذلك يمس نظام الدولة وأنظمتها.

وابن مسعود والٍ عليه تنفيذ أنظمة الدولة؛ ولذا كان يتفق مع الخليفة الراشد الفاروق عمر في مثل هذه الاجتهادات التي موضوعها حفظ نظم الدولة والمصلحة العامة، مثل منع بيع الأراضي الزراعية، ومنع بيع حق الانتفاع بها[2].

---

(١) قال ذلك ابن جرير الطبري فيما نقله عنه ابن القيم في أعلام الموقعين (١/٢٠).

(٢) انظر: موسوعة فقه عبد الله بن مسعود، د/ رواس قلعجي، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، كلية الشريعة، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة (ص١٨-٢).

٢- موافقة اجتهاد ابن مسعود لاجتهاد عمر ﷺ؛ وذلك لاتحاد أدلة الاستنباط عندهما، ويرى بعض الباحثين أن المسائل المتفق على أحكامها بينهما سببها هذا الاتفاق في أدوات الاجتهاد[1].

٣- متابعة ابن مسعود لعمر بن الخطاب فيما لم يترجح لديه فيه شيء فيتابع عمر في ذلك، لسداد فكر عمر ﷺ [2].

ومع كم الاتفاق في الاجتهاد النابع من الأسباب السابقة لا نستطيع الجزم بمتابعة ابن مسعود لعمر في كل اجتهاداته حتى يترك قوله لقول عمر كم يرى الإمام الطبري، ومذهبه لمذهب عمر، ويدل على ذلك أمور أهمها:

١- اختلاف البيئة التي عاش فيها ابن مسعود بالكوفة عن البيئة التي عاش فيها عمر بالمدينة؛ وبالتالي سيؤدى ذلك لتوسيع الثقافة واستخدام أدوات فكرية تتناسب مع كل بيئة منهما.

٢- وجود كم كبير من الاختلاف في الاجتهاد بين ابن مسعود وعمر ﷺ، مما يشعرك بأن احتمال متابعة ابن مسعود لعمر في استنباطه للأحكام احتمال ضعيف.

---

(١) انظر: موسوعة فقه عبد الله بن مسعود، د/ رواس قلعجي، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، كلية الشريعة، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة (ص١٨-١٩).

(٢) المرجع السابق (ص ١٨، ١٩).

(٣)

علي بن أبى طالب[1]

۞ هو علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وأول من أسلم من الصبيان. وكان موصوفًا بالورع وشدة الحياء، مع علم وفهم وتوقد ذهن.

وكان مبرزًا في الفقه والقضاء وانتشرت أحكامه وفتاويه، فكان الصحابة يعتمدون عليه في العويصات، حتى رأينا عمر بن الخطاب عندما كان خليفة للمسلمين "يتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن"[2] أي علي بن أبي طالب، وكان يقول عمر رضي الله عنه: "عليٌّ أقضانا"[3] ويقول ابن مسعود: "أقضى أهل المدينة ابن أبي طالب"[4].

ولم يكن هذا الفضل والعلم الذي شهد به كبار الصحابة من فراغ بل لما بذله علي بن أبي طالب من جهد في التحصيل العلمي، ويظهر ذلك من خلال قوله عن نفسه: "والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين أنزلت، إن ربي وهب لي قلبًا عقولا ولسانً سئولا"[5].

ومما يدل أن عليًّا كان قد جمع له إلى حبه للتلقي حرص النبي ﷺ على تفقيهه أنه سئل يومًا، فقيل له؟: "أنت أكثر أصحاب رسول الله ﷺ حديثًا؟ فقال: إني كنت إذا سألته أنبأني، وإذا سكت ابتدأني"[6].

---

(١) انظر: ترجمته في: الإصابة لابن حجر (٤/٥٦٤).
(٢) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم (١/ص٢٥)، دار الحديث سنة ١٤١٤هـ.
(٣) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (١/٦٥) ط الأولى.
(٤) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ق٢/١٠١).
(٥) انظر:حلية الأولياء لأبي نعيم (١/٦٧-٦٨).
(٦) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم (١/٢٤)، دار الحديث.

وقد كان علي مقدمًا عند النبي ﷺ لحسن خلقه وإخلاص إيمانه، حتى جعل في منزله قرب شديدة منه عندما قال له: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلاَّ أنه لا نبي بعدي**»[1].

وهذا القرب من رسول الله ﷺ جعل لعليٍّ نصيبًا عظيمًا من العلم والفقه والأحاديث التي حفظها عن النبي ﷺ ولكن الصراع الذي دار بين عليٍّ ﷺ ومعاوية بن أبي سفيان، وهذا الصراع أنتج فرقتين من أشد الفرق تعصبًا في تاريخ الأمة الإسلامية، وهما: الشيعة والخوارج.

وقد أثر ظهور فرقة الشيعة في الأحاديث المروية عن لعليٍّ -مع كونهم شيعته- بالسلب؛ لأنهم لما رأوا تعدى بني أمية على لعليٍّ وأبنائه بدءوا في اختلاق الأحاديث وكذبها في فضائل عليٍّ وأبنائه وأهل بيته.

ولقد كان من المتوقع قبل أن يفعل الشيعة ما فعلوه من اختلاق الأحاديث عن عليٍّ، أن يتناقل العلماء بكل اهتمام علم الإمام عليٍّ لعظيم نفعه وجلال قدر صاحبه، وكان من المتوقع أن نجد الألسنة تلهج بالرواية عنه، ولكن ما فعله الشيعة أفسد هذا الكتر العظيم من علم عليٍّ ﷺ؛ لأن العلماء بدءوا يشكون في مرويات شيعته عنه لما يدخلها من المبالغة في حقه حتى يصل الأمر للكذب على النبي ﷺ واختلاق أحاديث عليه في فضل عليٍّ وأهل بيته رضوان الله عليهم أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي - باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة - ح٤٤١٦) وأخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل علي، من حديث مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه سعد.

ولذلك لم ينقل العلماء الكثير من علم عليٍّ وفقهه، واكتفوا بنقل القليل الذي يرويه رواة معينون، ويصف هذا الأمر الإمام ابن قيم الجوزية بقوله: "قاتل الله الشيعة، فإنهم أفسدوا كثيرًا من علمه بالكذب عليه، ولهذا نجد أصحاب الحديث من أهل الصحيح لا يعتمدون في حديثه وفتواه إلا ما كان من طريق أهل بيته وأصحاب عبد الله بن مسعود كعبيدة السلماني، وشريح وأبي وائل ونحوهم"[1].

وقلة ما نقل من علم الإمام عليٍّ يمكن أن يكون نتيجة -أيضًا- لما قام به الحكم الأموي من محاربة لكل آثاره العلمية لكي يقل شأنه ويذهب حبه من قلوب الناس.

فهذان السببان: العلمي: المتمثل في تشكك كثير من العلماء في مرويات شيعة عنه، **والسياسي**: المتمثل في محاولات بني أمية للتخلص من آثاره العلمية لإبعاده عن القلوب والعقول، يتضافران ليظهرا ما وقع على آثاره العلمية من صعوبات سببت قلة ما يروى عنه.

ومع تأمل نصِّ الإمام ابن قيم الجوزية نجده يكشف لنا عن الصلة الوثيقة بين شريح وعلم الإمام عليٍّ ﷺ وفقهه، حيث كان ممن يعتمد العلماء روايته عن الإمام عليٍّ في الحديث والفتوى.

---

(١) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم (١/ ٢٨، ٢٩).

(٤)
معاذ بن جبل[1]

❁ هو معاذ بن جبل صاحب رسول الله ﷺ وقاضيه الذي بعثه إلى اليمن محمَّلا بأغلى النصائح، بل وبأحرّ الوداع وبدعواته ﷺ له[2] ومشى معه أكثر من ميل ينصحه.

ولقد كان معاذ فقيهًا من الطراز الأول؛ ولذا وقع اختيار النبي ﷺ عليه ليسافر إلى اليمن إحدى أهم المناطق بالجزيرة العربية، فالمهمة فيها لم تكن سهلة؛ ولذا عقد له النبي ﷺ اختبارًا قبل تسفيره لليمن، فسأله عن أصوله التي سيبنى عليها قضاءه في اليمن فقال له: "بم تحكم يا معاذ؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد ؟ قال: فبسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد ؟ قال: اجتهد رأيي، فسُرَّ رسول الله ﷺ سرورًا عظيمًا وقال: "الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضاه"[3].

ويظهر من هذا الاهتمام العظيم للنبي ﷺ بأمر اليمن، وأمر دعوتها للإسلام أنه أختار لقضائها فقيهًا يمكنه الاطمئنان لرأيه وعلمه.

فأعلن معاذ بجوابه هذا للنبي ﷺ أنه من رجال لديهم البراعة الكافية للتعامل مع الحوادث والنوازل[4].

---

(١) انظر ترجمته في: الاستيعاب لابن عبد البر (١٤٠٢/٣)، دار الجيل، بيروت، ط١، محمد علي البجاوي، سنة ١٤١٣هـ.

(٢) انظر: اليمن في صدر الإسلام، د/ الشجاع (ص ١٦٠، ١٦١).

(٣) سيأتي تخريجه في موقف الإمام شريح من القياس (ص٤١١).

(٤) انظر: الحركة الفقهية الإسلامية، د/ إمبابي (ص ١٦٩).

وكان أكبر دليل على أن النبي ﷺ اختار معاذًا قاصدًا براعته في القضاء وإحسانه عملية استنباط الأحكام، أن النبي ﷺ وصفه من قبل بعثه بأنه "أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل"[1].

وكأن النبي ﷺ كان يجهز لمعاذ مكانة معينة نالها بإيمانه المخلص وعلمه وتوقد ذهنه وفهمه للأمور على وجهها، مما دفع النبي ﷺ أن يمدحه بأنه أعلم الأمة بالحلال والحرام؛ ولذا كان منصب القضاء هو المنصب المناسب لمعاذ بن جبل.

وهذا المنصب الذي وضعه فيه النبي ﷺ يعتبر تقييمًا لأداء معاذ بن جبل الفقهي، وأنه يستحق لقب فقيه من الطراز الأول، وهذا ما فهمه الصحابة حين رأوا معاذ بن جبل ركنًا من أركان الفقه بالمدينة وعلمًا من أعلامها ويظهر هذا في كلام عمر بن الخطاب الذي يتأسف فيه على مغادرة معاذ بن جبل المدينة حيث يقول: "لقد أخلَّ خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبسه لحاجة الناس إليه فأبى على"[2].

ومدح فقهه أيضًا العلم الثاني لمدرسة الرأي عبد الله بن مسعود ﷺ فقال فيه: "إن معاذًا كان أمةً قانتًا لله حنيفًا، فظنَّ فروة بن نوفل أن عبد الله بن مسعود نسي الآية، فقال: نسي أبو عبد الرحمن، إبراهيم تعنى؟ فقال ابن

---

(١) انظر: الاستيعاب (٢/١٤٠٤).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج ٢، ق ٢، ص ١٠٨).

مسعود: هل سمعتني ذكرت إبراهيم؟ إنا كنا نشبه معاذًا بإبراهيم أو كان يشبهه به"[1].

ولكن قد يتصور باحث أن كل هذا الفضل المذكور لمعاذ علمًا وفقهًا تقديم النبي ﷺ له على سائر أصحابه في علمه بالحلال والحرام، كل هذا يتعارض معه قول ابن المديني: "لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ له أصحاب يقول بقوله في الفقه إلا ثلاث: عبد الله بن مسعود وزيد وعبد الله ابن عباس، فإنهم كان لكل واحد منهم أصحاب يقولون بقوله، ويفتون الناس"[2].

ولعل هذا القول هو الدافع لابن القيم على عدم ذكره معاذًا ضمن الناشرين للفقه الإسلامي، وإن كان أضاف للثلاثة السابقين، عبد الله بن عمر[3].

ولكني أرى أن سبب قولهم بعدم اشتهار معاذ بنشر الفقه كان راجعًا لأسباب أهمها:

١- انشغال معاذ بالقضاء باليمن.

٢ - عدم وجوده بالمدينة مقر الخلافة التي ترمقها الأنظار.

٣ - ظهور فقهه في فترة مبكرة جدًا لم يكن الاتجاه في الفقه قد وصل إلى حد الاتباع التام لفقيه معين، بل الروح المسيطرة على الفكر

---

(١) انظر: المرجع السابق، نفس الموضع.

(٢) انظر: التاريخ الكبير لابن عساكر. مطبعة الروضة، سنة ١٣٣٢هـ (ج ٥، ص ٤٤٩).

(٣) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم، دار الحديث، ط ١، سنة ١٤١٤هـ (ج١، ص ٢٩).

الإسلامي لقرب العهد من النبوة، الاتباع التام يكون لشخص النبي ﷺ، وهذا ما عبرَّ عنه الدكتور/ محمد مصطفى إمبابى بقوله "قبل أن تقع المبادلات العلمية وتثور المناقشات الفقهية"(١)، وهذا التعبير أراه قد يكون في حاجة لنظر؛ لأن المبادلات العلمية بدأت منذ عصر النبوة بين الصحابة فيما بينهم، والمناقشات الفقهية ثارت حتى في حياة النبي ﷺ، مثل ما وقع من اختلاف بين فاقدي الماء، وما وقع بين من سمعوا نص النبي ﷺ: «**لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة**» واختلاف الرأي في أسرى بدر وغير ذلك من المسائل التي نوقشت في عصر النبوة.

ويكشف كل ما سبق عن أن معاذًا أسهم بصورة ملحوظة في نشر الفقه في اليمن وكان له تلاميذ، لا تقل أدوارهم الفقهية عن تلك الأدوار التي قام بها تلاميذ فقهاء آخرين من الصحابة أمثال ابن مسعود وزيد وابن عمر وابن عباس عليهم رضوان الله.

وأرى أن معاذًا قد تتلمذ على يديه كثير من أعلام مدرسة الرأي في طبقتها الثانية المتمثلة في التابعين أمثال: الأسود بن يزيد النخعي، وعلقمة بن قيس النخعي، ومسروق بن الأجدع، وشريح بن الحارث، وكل هؤلاء من اليمن، الفقيهان الأولان من قبيلة النخع، والثالث من قبيلة همدان، والرابع من قبيلة كندة، والقبائل الثلاثة من قبائل اليمن(2).

---

(١) الحركة الفقهية الإسلامية، د / إمبابى (ص ١٦٩).

(٢) انظر: ضحى الإسلام، لأحمد أمين، ط الأولى، ج ٢، ص ١٨١.

وليس سبب قولي بهذا وجودهم باليمن فحسب، بل لاستعدادهم الواضح من خلال فقههم لاستخدام الرأي في التوصل للأحكام الشرعية، وهذا ما ظهر بعد ذلك عندما أصبحوا أعلامًا في مدرسة الرأي.

❁ ولقد كان شريح ممن تعلموا العلم على يد معاذ بن جبل ويثبت هذا أمور منها:

١- نزول معاذ بن جبل بمنطقة الجند[١]، وهى منطقة محصورة بين السكاسك وهم فرع بني معاوية الذين ينتمون لكندة وينسب إليهم شريح وفيهم بنو الرائش تلك البطن التي ينتسب لها شريح، وبين السكون الفرع الآخر للقبيلة[٢]، وكانت رئاسة منطقة الجند للسكاسك[٣] وهذا المكان القريب يسهل معه التعلم وطول الملازمة من شريح لمعاذ بن جبل، وبهذا تتصور علاقة تتلمذ شريح على يد معاذ بن جبل.

٢- ذكر بعض المترجمين لشريح أنه تعلم العلم على يد معاذ بأن نقله بعضهم فقال: "قالوا: تعلم العلم على معاذ بن جبل"[٤] وهذا يعنى كثرة من قالوا ذلك، هذه الكثرة المفهومة من اتصال الفعل بضمير الجمع.

---

(١) انظر: السابق، نفس الموضع.

(٢) انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ٤٢٧.

(٣) انظر: اليمن في صدر الإسلام، د / الشجاع (ص ١٦٢)، وكان النبي ﷺ أوصى معاذاً بأن يترل بين السكاسك والسكون، راجع المرجع السابق.

(٤) انظر: تهذيب الكمال للمزي، ج ١٢، ص ٤٣، والكاشف للذهبي، ج ٢، ص ٨، نقلا هذا القول عن على بن المديني رحمه الله.

وهذا الكثرة من العلماء هي التي دفعت الأستاذ أحمد أمين للجزم بتعلم شريح بن الحارث على يد معاذ بن جبل، لا لقرب المكان فقط.

٣- أن المقصد الذي ذهب معاذ من أجله لليمن لم يكن فقط عمله بالقضاء، بل أيضًا كان مقصدًا تعليميًا، يظهر ذلك من وصية النبي ﷺ له، ولابد أن معاذًا قد نفذ وصية النبي ﷺ ولابد أن هذا التعليم قد أنتج تلاميذ وأولى الناس بهذا التعليم هم أهل اليمن، الذين منهم شريح بن الحارث.

المسألة الثانية: ذكر أقرانه:

❁ **بين يدي أقرانه:** إن من المصادر الهامة لتنمية المناهج لدى العلماء الصلات المتبادلة بينهم، لتبادل وجهات النظر، وإدارة المناقشات العلمية الهادفة بغية الوصول للصواب.

والفقهاء المسلمون كانوا من أكثر العلماء استفادة بالصلات التي تجمعهم؛ لما عرف عنهم من إخلاص في طلب العلم الشرعي، والمبالغة في طلبه، حتى يصل الأمر إلى قطع الفيافي الطوال بحثًا عن العلم والفقه، وكتب رحلات الفقهاء في طلب العلم تحكى تاريخًا حافلا بذلك.

وهذه الصلات العلمية كانت قائمة بين الفقهاء في المكان الواحد، والعصر الواحد، وكتب التواريخ والطبقات تحكى الكثير من ذلك وقد يصل الأمر إلى أن يرسل الفقيه في طلب الإجابة على شيء لفقيه يعاصره إذا كان هذا الفقيه المرسل إليه قد رحل من مكان إقامة السائل، ومن ذلك ما وقع من عبد الرحمن بن مهدي عندما أرسل إلى الإمام الشافعي في طلب أن يكتب له رسالة يذكر فيها أصولا ينبني عليها استنباط

الأحكام الشرعية، فأرسل إليه الإمام الشافعي رسالته المشهورة التي عرفت بهذا الاسم[1].

وقد كانت الكوفة زاخرة بالفقهاء في عصر شريح القاضي ذلك العصر الذي اصطلح المؤرخون للحركة الفقهية الإسلامية على تسميته بعصر المدارس الفقهية، فكان بالكوفة عدد كبير من فقهاء مدرسة الرأي مثل علقمة والأسود ومسروق وعبيدة والحارث وأبو ميسرة، وكان الطابع والسمة اللذان يغلبان على فقهاء مدرسة الرأي بالكوفة أنهم من تلاميذ الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فكان لهؤلاء الفقهاء الكبار دور عظيم في إثراء الحياة العلمية بالكوفة، وتبادلوا فيما بينهم المشورة والرأي والنصح، فزادت مناهجهم وضوحًا وتماسكًا وإتقانًا.

ولقد كان هؤلاء الفقهاء هم أقران شريح الذين يشاركونه نفس البيئة المكانية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية، فكان دراسة بيئة أحدهم هي صدى لدراسة بيئة الآخر، فكان ضروريًا أن أعوض لصلتهم بشريح؛ لكي أضع يدي على الجوانب المنهجية التي يمكن أن يؤثروا فيها في منهج شريح.

وهذا لا يعني أن أقيم دراسات مقارنة تُخرج البحث عن مراده الأصلي وهو الكشف عن منهج شريح القاضي الفقهي، ولكني أحاول أن أضع يدي فحسب على مواطن يمكن لأقران شريح أن يؤثروا فيها على منهج شريح الفقهي.

---

(١) انظر: مقدمة الرسالة، بتحقيق أ.د/ محمد نبيل غنايم، طبعة تقريب التراث الأهرام ص ٢٥.

وذلك مع مراعاة أن شريحًا من الصعب أن نستعرض كل معاصريه لكثرة العلماء في هذا العصر، ولكني سأتوقف عند حد ما تمليه كلمة (الأقران) وهو الحد الذي يقتضى أن اذكر من اقترن ذكر شريح بهم كتلاميذ لشيخ معين، وهذا ما حدث عندما قرنه كثير من العلماء بتلاميذ ابن مسعود ﷺ[1] وجعلوه ضمن الستة من تلاميذه الذين يعلمون الناس ويقرئونهم؛ ولذا سأكتفي بكبار تلاميذ ابن مسعود والذين اتصلوا بشريح؛ لأن هؤلاء الذين يمكنهم بالفعل التأثير في منهج شريح لأمرين:

١ - وجود صلة بين شريح وبينهم مما يتيح تبادل وجهات النظر بينهم، واستفادة كل منهم بالآخر.

٢ - أن مكانتهم العلمية باعتبارهم كبار تلاميذ ابن مسعود تجعلهم محل للعلم ومظنة للاستفادة من علمهم.

ولعل الاستفادة من أقران شريح من العلماء الكبار، تلك الاستفادة هي التي قصدها عندما سألوه: من أين أتيت بهذا العلم؟ فقال: بمفاوضة العلماء.

---

(١) انظر: طبقات الفقهاء للشيرازي ص٨١.

(١)

علقمة بن قيس النخعي[1]

❁ هو: علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك أبو شبل، النخعي الكوفي.

ولد في حياة النبي ﷺ، لكنه ليس صحابيًّا، شهد صفين في جيش عليٍّ بن أبي طالب. كان شديد الحب للعلم، وكثرت رحلاته في طلبه، سمع من كثير من الصحابة وروى عنهم أمثال عمر، وعثمان، وعليٍّ، وابن مسعود، وسعد، وحذيفة، وخبَّاب، وأبي موسى، وأبي الدرداء، وأسامة بن يزيد، ومعقل بن سنان، وعائشة، وغيرهم[2].

وكان ورعًا تقيًّا غير محبٍّ للشهرة، رفض الجلوس للتحديث لذلك وكانوا يطلقون عليه (أبو الصلاة) لكثرة صلاته.

وكان من أخصِّ طلاب وتلاميذ ابن مسعود، أخذ عنه العلم والقرآن وكان ابن مسعود- يعتني به وبعلمه، وكان علقمة يحفظ له ذلك ويقوم على شئونه فكان أشبه الناس بعبد الله بن مسعود في علمه وسمته وهديه، حتى قال فيه على بن المديني: "أعلم الناس بعبد الله علقمة، والأسود، وعبيدة والحارث"[3].

---

(١) انظر ترجمته في: طبقات ابن سعد (٨٦/٦)، سير أعلام النبلاء (٥٣/٤-٦١)، تاريخ دمشق (٤٠٤/١١-وما بعدها)- المعارف (٤٣١)، تهذيب الكمال (٣٠٠/٢٠).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٥٤).

(٣) انظر: المصدر السابق (٤/ ٥٥).

وقال فيه أبو المثنى رياح: "إذا رأيت علقمة فلا يضرك ألا ترى عبد الله؛ أشبه الناس به سمتًا وهديًّا"[1].

وكان العلماء يقدمونه؛ لأن الصحابة -كما روى عن ظبيان يستفتونه[2]، وكان ابن مسعود نفسه يقول عنه: "ما أقرأ شيئًا ولا أعلمه إلاَّ علقمة يقرؤه ويعلمه"[3]. وكان إبراهيم يقدمه على سائر أصحاب ابن مسعود.

توفي -رحمه الله- بالكوفة سنة اثنتين وستين[4] وأوصى ألا يؤذن به أحد.

وأرى أن علقمة إن لم يجالس شريحًا في مجلسه للقضاء؛ فهذا لا يمنع من وصول رأيه لشريح عن طريق إبراهيم النخعي ابن بنت أخيه الذي كان حاله مع خاله علقمة، كحال علقمة مع ابن مسعود، وكان إبراهيم على اتصال دائم بشريح؛ لأنه كان يعمل معه جلوازًا، هذا اللقاء اليومي يدور فيه نقاش يمكن من خلاله تبادل وجهات النظر، ووقوع التأثير والتأثر.

---

(١) انظر: المصدر السابق، نفس الموضع.
(٢) انظر: المصدر السابق (٤/ ٥٩).
(٣) انظر: المصدر السابق (٤/ ٥٨).
(٤) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١١/ ٤١٤ب).

(٢)

الأسود بن يزيد النخعي[1]

❁ هو: الأسود بن يزيد بن قيس بن عبد الله النخعي. وهو ابن أخي علقمة بن قيس، إلا أنه كان أكبر منه، فقد كان مخضرمًا أدرك الجاهلية.

ولم يكن حاله في العبادة وحب العلم أقل من عمه. فقد أخذ عن كبار الصحابة وروى عنهم أمثال أبي بكر، وعمر، وعلى، ومعاذ، وحذيفة، وبلال، وعائشة وغيرهم[2].

وكان يجهد نفسه في العبادة والصوم حتى تغيَّر لونه ونحل جسمه وذهبت إحدى عينيه من كثرة بكائه.

وكان كذلك من أخص تلامذة ابن مسعود، ولكن لكثرة رحلاته للمدينة ومكة -لكونه حجاجًا[3]- جعله يمزج بين علم ابن مسعود وعلم عمر بن الخطاب الذي لزمه في المدينة.

فكان العلماء يقدمونه ويجعلونه دائمًا مقرونًا بعلقمة، وكانت أم المؤمنين عائشة تقول فيه: "ما بالعراق رجل أكرم على من الأسود"[4]

---

(١) انظر: ترجمته في طبقات ابن سعد (٦/٧٠)، المعارف (٤٣٢)، الإصابة (ت٤٥٧)، البداية والنهاية (٩/١٢)، أسد الغابة (١/ ٨٨)، سير أعلام النبلاء (٤/٥٠- ٥٣).

(٢) انظر: تهذيب التهذيب (١/ ٣٤٢)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٥١).

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (٦ / ٧٣)، طبقات الفقهاء (ص٧٩).

وقال إبراهيم: كان أصحاب عبد الله الذين يقرئون الناس ويعلّمونهم السنة، ويصدر الناس عن رأيهم ستة: علقمة والأسود، وذكر الباقين[1].

توفي رحمه الله بالكوفة سنة خمس وسبعين [2].

وما قيل عن علقمة واتصال شريح بعلمه، هو ما يمكن قوله في اتصاله بعلم الأسود؛ لأن إبراهيم تلقى العلم والتربية على يد خاليه علقمة والأسود ولعله كان أحد نوافذ شريح على فتاوى أهل المدينة.

(١) انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (١/ ٣٤٣)

(٢) انظر: تهذيب التهذيب (١/ ٣٤٢) .

(٣)

مسروق بن عبد الرحمن ابن الأجدع[1]

❁ هو: مسروق بن عبد الرحمن بن مالك بن أمية بن عبد الله بن سليمان بن معمر من همدان، قال الشعبي: لما وفد مسروق على عمر قال: من أنت؟ قال: مسروق بن الأجدع، قال: الأجدع شيطان، ولكنك مسروق بن عبد الرحمن فكان يكتب: من مسروق بن عبد الرحمن.

كان مُعَمِّرًا مخضرمًا أدرك الجاهلية، روى عن كثير من الصحابة منهم أبو بكر، وعمر، وابن مسعود، ومعاذ، وزيد بن ثابت، وخبَّاب، وأُبيّ، وعائشة أم المؤمنين[2].

وكان كثير الصلاة، وشهد القادسية مع ثلاثة من إخوته، قتلوا جميعًا وأصيب هو بآمَّة وشُلَّت يده. وكان زاهدًا لم يأخذ على القضاء أجرًا.

وكان العلماء من الصحابة يقدرونه ويجلونه، ومن هؤلاء الصحابة ابن عباس الذي أرسل إليه رجلا كان قد جاء لابن عباس يسأله عن نذره ذبح ولده، فأرسله لمسروق، فأجابه مسروق بأنه يذبح كبشًا، فقال ابن عباس وأنا أقول بذلك[3]، وكان على بن المديني يقدمه على سائر أصحاب ابن مسعود[4]. توفى رحمه الله بواسط سنة ثلاث وستين.

---

(١) انظر: ترجمته في: طبقات ابن سعد (٦ / ٧٦)، المعارف (٤٣٢)، تاريخ بغداد (١٣/ ٢٣٢)، أسد الغابة (٤/ ٣٥٤)، طبقات الفقهاء للشيرازي (٧٩)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ق١ / ٨٨).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٦٤).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٥/١١١)، دار الشعب، سنة ١٣٧٣هـ.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٦٦).

وشريح كان شديد الصلة بمسروق فكان يجالسه، وينتقل في الكوفة معه، فيذهبان لصلاة العيد معًا، وهذه مساحة واسعة من الوقت ليتبادلا وجهات النظر، حتى أن شريحًا كان يستشيره كما ذكر ذلك الشعبي حيث قال: وكان شريح يستشير مسروقًا[1] ويتضح أثر هذه الصحبة وهذا الاقتران فيما ذكره عنه الشعبي من أن شريحًا كان يصلى ركعتين بعد العصر أخذهما عن مسروق والناظر لعلاقتهما معًا يجدها وثيقة الصلة حتى أنه قد يغير رأيه لرأى مسروق إذا رآه أقرب للصواب[2].

(١) انظر: أخبار القضاة (٢/ ٢٢٨ - ٢٢٩).
(٢) انظر: مثلا أخبار القضاة (٢/ ٢٣٦ - ٢٣٧).

(٤)

عبيدة بن عمرو السلماني[1]

❁ هو عبيدة بن عمرو السلماني المرادي أبو عمرو الكوفي. أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين، ولم يلقه.

ولقي كثيرًا من الصحابة وروى عنهم، منهم: على وابن مسعود وابن الزبير، وروى عنه: إبراهيم النخعي، وعبد الله بن سلمة، وأبو إسحاق السبيعي[2].

وكان عريف قومه مما جعله يتطلع على كثير من أحوالهم فيكون لديه الدربة الكافية للتعامل معها.

وكان من خاصة تلاميذ ابن مسعود الذين يفتون ويقرئون القرآن[3] وقالوا عنه: إنه يوازى شريحًا في القضاء [4]؛ ولذا كان معروفًا بجرأته في الفتوى فيما يعلمه، ولكنه كان كما قال ابن سيرين "أجبن الناس عما لا يعلم"[5].

وسبق ذكر قول على بن المديني، "الذي يجعل فيه عبيدة من أعلم الناس بعبد الله بن مسعود".

---

(١) انظر: ترجمته في طبقات ابن سعد (٦/٩٣)، طبقات الفقهاء للشيرازي (٨٠)، تاريخ بغداد (١١/ ١١٧)، أسد الغابة (٣/ ٣٥٦)، تهذيب الأسماء واللغات (١/ ق١ / ٣١٧)، البداية والنهاية (٨ / ٣٢٨)

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٠، ٤١).

(٣) انظر: تهذيب التهذيب (١/ ٣٤٣).

(٤) انظر:أخبار القضاة (٢/ ٤٠١).

(٥) انظر: أخبار القضاة (٢/ ٤٠٠).

مات سنة اثنتين وسبعين وصلى عليه الأسود بن يزيد.

والناظر لعلاقة شريح بعبيدة يجدها علاقة محبة وتقدير حيث يعرف شريح لعبيدة قدره فيرسل إليه المسألة التي يتوقف فيها أو لم يكن لديه شيء فيها بأن تكون مثلا من مسائل الفتوى التي كان شريح لا يتكلم فيها في مجلس القضاء[1].

وهذا الطريق بين شريح وعبيدة تفتح لشريح آفاقًا واسعة من الاطلاع على اتجاه فقهي آخر يمكن لشريح الاستفادة منه.

(١) انظر مثلا: أخبار القضاة (٢/ ٤٠٠).

(٥)

عمرو بن شرحبيل الهمدانى[1]

❁ هو: عمرو بن شرحبيل الهمداني أبو ميسرة، روى عن عمر وعلي وابن مسعود وحذيفة، وسلمان، وقيس بن سعد بن عبادة، ومعقل المزني، وعائشة أم المؤمنين[2].

وروى عنه أبو وائل، وأبو إسحاق السبيعي، وأبو عمَّار الهمداني، والقاسم بن مخيرة، ومحمد بن المنتشر، ومسروق وإن كان من أقرانه[3].

وكان عمرو من الستة الذين اشتهروا بتعليم قراءة القرآن والفقه حتى قال فيه أبو وائل: "ما اشتملت همدانية على مثل أبي ميسرة -قيل له: ولا مسروق؟ قال: ولا مسروق"[4] وقال فيه أيضًا: كان أبو ميسرة من أفاضل أصحاب عبد الله. ووثقه ابن معين[5].

وإن لم تكن المصادر كاشفة لنا عن حجم علاقة شريح بعمرو بن شرحبيل فهذا لا يمنع من تأثير عمرو بن شرحبيل في البيئة العلمية المحيطة بشريح، ليكتمل به وبشريح الأعلام الستة الذين كان عليهم مدار العلم في الكوفة في هذا العصر -عصر كبار التابعين.

---

(١) انظر ترجمته في: طبقات ابن سعد (١٠٦/٦)، حلية الأولياء (١٤١/٤)، تهذيب التهذيب (٨/ ٤٧).

(٢) انظر: تهذيب التهذيب (٨/ ٤٧)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٣٥).

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (٦ / ١٠٦)

(٥) انظر: تهذيب التهذيب (٤٢/٨)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م (ط١).

وعمرو بن شرحبيل توفى سنة ثلاث وستين وصلى عليه شريح، وذلك تنفيذاً لوصية أبي ميسرة، تلك الوصية التي تكشف عن وجود علاقة بين شريح وأبي ميسرة، ولكن المصادر لم تسعفنا بحجم هذه العلاقة أو صورتها.

obeikandl.com

(٦)
الحارث الأعور[1]

❁ هو الحارث بن عبد الله بن كعب بن أسد الهمداني الكوفي، صاحب عليٍّ وابن مسعود.

كان فقيهًا كثير العلم، سمع من عليٍّ وابن مسعود، وروى عنه الشعبي وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن مرة، وأبو إسحاق السبيعي[2].

قدمه بعض العلماء على أقرانه فقال ابن أبي داود: كان الحارث أفقه الناس، وأحسب الناس؛ تعلَّم الفرائض من عليٍّ رضي الله عنه[3].

ووضعه العلماء فيمن عليهم مدار العلم في الكوفة والمتقدمين من العلماء فيها، قال محمد بن سيرين: "أدركت أهل الكوفة، وهم يقدمون خمسة: من بدأ بالحارث الأعور، ثنى بعيدة السلماني، ومن بدأ بعبيدة، ثنى بالحارث، ثم علقمة ثم مسروق، ثم شريح[4].

وهذه المكانة للحارث الأعور، هي التي جعلته يكون متممًا للستة الذين عليهم مدار العلم والقراءة في الكوفة، وبهذا ينضم لعلقمة والأسود ومسروق وعبيدة وشريح، ليكون معهم سداسي العلم بالكوفة.

---

(١) انظر ترجمته في: طبقات ابن سعد (٦ / ١٦٨)، طبقات الفقهاء (٨٠)، المعارف (٦٢٤)، العبر في أخبار من غبر (١/ ٧٣)، ميزان الاعتدال (١/ ٤٣٥)، تهذيب التهذيب (٢/ ١٤٥).

(٢) انظر: تهذيب التهذيب (٢/ ١٤٥).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥٣).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥٣).

وقد كان شريح -كما سبق الإشارة- يجالس العلماء في مجلس القضاء، فليس بعيدًا أن يقع اتصال أو لقاء من خلال الوسائل المتعددة للاتصال بالمدينة الراقية التي يعيشان بها وهى الكوفة، فالحركة العلمية كبيرة في الكوفة وتنتقل الآراء فيها بسرعة شديدة، فمن السهل مع هذه الحالة الثقافية والفكرية أن يحدث اتصال بأنواع كثيرة من وسائل الاتصال العلمية، كانتقال الاجتهادات عن طريق التلاميذ أو عن طريق المستفتين، وكلها طرق تسمح بالتأثير والتأثر للاشتراك في بيئة واحدة، ولذا لا غرو أن يظهر أثر هذه الصلات في مناهج الفقهاء بالكوفة.

❁ **المسألة الثالثة: ذكر تلاميذه:**

❁ **بين يدي تلاميذه:** إن أهم الآثار التي يتركها العالم ما يورثه لتلاميذه من علم، يظل بسببه حيًّا بعد موته بعلمه.

والدراسات المقارنة التي تضطلع بالبحث عن آثار تطور الأفكار أو انتقالها في عقول العلماء أصحاب الجهود العقلية المتصفة بالمنهجية تهتم اهتمامًا كبيرًا برصد تأثير الشيوخ على تلاميذهم، لتستطيع هذه الدراسات أن تصل لمدى تطور الفكر العلمي بانتقال فكرة ما من شيخ إلى تلاميذه.

وهذه الدراسات التاريخية المقارنة تضع يد الباحث على العوامل المؤثرة في التطور الفكري في كل علم، وإنها تحتاج لجهد كبير في رصد الظواهر والأفكار بين الشيوخ وتلاميذهم، وقد لا يتسع بحث واحد لذلك، نتكامل في دراسة تأثير شيخ واحد في عدد من تلاميذ، عدة دراسات، تأخذ على عاتقها رصد التطور الذي أحدثه التلاميذ في فكر شيخهم.

وهذه الدراسة كانت تودُّ أن تقوم بتفصيل هذا الرصد للتطور الفكري لأثر شريح في تلاميذه، ولكنَّ تفصيل هذا الرصد وتفصيل تحليله لا يستوعبه حجم هذه الدراسة؛ ولذا سأعمد للنظر التدقيق في آثار كل من شريح وتلاميذه محاولا إيجاز فكرة منهجية يكون تلاميذه قد أخذوها بواسطة فكر شريح ثم استمروا في تطويرها، سواء أكانت هذه الفكرة في جانب المادة أم كانت في جانب التطبيق.

هذا مع مراعاة أن هذه الفكرة قد تصاغ في عبارة واحدة ولكنها عند التحليل والاستشهاد لها تصلح لأن يكون مادة لدراسة مستقلة.

وهذا الرصد لتطور الفكر الفقهي لشريح القاضي لا يصلح استخدامه لكل تلاميذ شريح؛ وذلك لسببين.

١- أن هذا التأثير المبحوث عنه، لا يمكن أن يقع لتلميذ روى عن شريح الأثر والأثرين، بل يحتاج لتلميذ كان يعمد لقضايا شريح يحفظها ويجمعها. وهذا ما يتوافر في عدد قليل ممن سمعوا شريحًا.

٢- أن التلاميذ المنتسبين لشريح وغيره من الشيوخ يتفاوتون في الفهم والإدراك، وتطوير فكرة ما يحتاج لتلميذ ذي عقلية منهجية تتلقف الفكرة وتطورها.

وهذان الأمران توافرا في عدد قليل من تلاميذ شريح أمثال الشعبي وابن سيرين وإبراهيم النخعي والحكم بن عيينة.

وهذه الكثرة هي التي دفعت الإمام وكيعًا صاحب كتاب أخبار القضاة لتقسيم مرويات كل واحد من هؤلاء التلاميذ في قسم مستقل على حدة؛ وذلك لكثرة ما يرويه كل واحد منهم[1].

ولعل هذا التقسيم من الإمام وكيع هو الذي جعل فؤاد سزكين يقول "ويكاد يكون ثابتًا أن وكيعًا قد استخدم كتبًا عن شريح ترجع أول الأمر إلى تلاميذ شريح مثل: الشعبي وإبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة"[2].

ولقد يتطرق بي البحث لذكر تصحيح لنسبة بعض التلاميذ لشريح القاضي مثل ما سأذكره عند الحديث عن مكحول.

وأنسى لا أنسى أن التلاميذ يكونون وسيلة اتصال بين أفكار شيوخهم الذين يتلقون منهم العلم، وهذا ما حدث مع إبراهيم النخعي الذي كان مظنة نقل فكر شيخيه وخاليه علقمة والأسود لشريح عندما كان يعمل معه جلوازًا.

---

(١) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/٢٠٠) وما بعدها.

(٢) انظر: تاريخ التراث العربي، لفؤاد سزكين، دار الثقافة والنشر بجامعة محمود بن سعود (م١/ج٣/ ١٧).

(١)

إبراهيم بن يزيد النخعي[1]

❁ هو: إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود أبو عمران الكوفي، وأمه ملكية بنت يزيد أخت الأسود بن يزيد.

هو أشهر فقهاء الكوفة ومدرسة الرأي، وتُعَدُّ آراؤه وفتاويه مصدرًا رئيسيًا لمذهب الإمام أبي حنيفة.

ولم يتبوأ النخعي هذه المكانة إلا لجهد وكدٍّ في التحصيل بدأه من الصغر فقد تعلق بالفقه والفقهاء منذ صغره، وترسم لنا كلمات العلماء هذه البداية فيقول أبو قيس: "رأيت إبراهيم يأخذ بركاب علقمة وهو غلام أعور"[2] وتزيد الأمر وضوحًا كلمات ابن سيرين عندما يقول: "إني لأحسب إبراهيم الذي تذكرون فتى كان يجالسنا فيما أعلم عند مسروق، كأنه ليس معنا وهو معنا"[3] وفى رواية "عند علقمة".

وكلمات ابن سيرين توضح حرص إبراهيم على التحصيل والطلب من الصغر، مع اقترانهما بشدة التركيز التي تظهر في قوله: "كأنه ليس معنا وهو معنا" وهذا ما جعله يتبوأ هذه المكانة العظيمة بين العلماء.

ويمكن التعرف على هذه المكانة بوضوح، إذا نظرنا في بعض كلام الأئمة عنه، فيقول سعيد بن جبير: "أتستفتوني وفيكم إبراهيم"[4] ويقول

---

(١) انظر ترجمته في: تهذيب الكمال للمزي (٢/٢٣٣-٢٤٠).
(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٦/ ٦١).
(٣) انظر: المرجع السابق (٦/١٨٨-١٨٩).
(٤) انظر المرجع السابق، (٦/ ١٨٩).

طلحة: "ما بالكوفة أعجب إلى من إبراهيم وخثيمة"[1] ويقول الشعبي معترفًا له بالعلم: "والله ما ترك بعده مثله، فقيل له: ولا الحسن ولا ابن سيرين؟ قال: نعم، ولا من أهل البصرة ولا من أهل الكوفة، ولا من أهل الحجاز[2].... وفى رواية الشام...

واعتراف الشعبي له بالعلم عند موته له مكانة خاصة؛ لأنه صدر من فقيه كان كثير المخاصمة والمنافسة لإبراهيم؛ وذلك يرجع لأن الشعبي ينتمي لمدرسة الحديث، في حين انتماء إبراهيم لمدرسة الرأي.

ولم يكن إبراهيم النخعي بارعًا في الفقه فقط، بل برع أيضًا في علم الحديث حتى قال عنه الأعمش: "كان إبراهيم صيرفي الحديث"[3] وهذا لتمكن إبراهيم من ناصية علم الحديث، فصار كالصيرفي الذي يميز بين صحيح الدراهم والدنانير وسقيمها، ويزداد الأمر وضوحًا حين يقول الأعمش أيضًا في موضع آخر:

"ما رأيت أحدًا أردَّ لحديث لم يسمعه من إبراهيم"[4] وكأن هذا النص من الأعمش يعلل سبب إطلاقه (صيرفي الحديث) على إبراهيم.

ولقد عرف إبراهيم النخعي بين أقرانه من أصحاب مدرسة الحديث بعلمه بالحديث، ومن ذلك ما ذكره إسماعيل بن أبى خالد قائلا: "كان

---

(١) انظر: المرجع السابق نفس الموضع.

(٢) انظر: المرجع السابق، نفس الموضع، وانظر حلية الأولياء لأبى نعيم (٤/ ٢٢٠).

(٣) انظر: حلية الأولياء، لأبى نعيم (٤/ ٢١٩، ٢٢٠) مطولا.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٥٢٨)

الشعبي وإبراهيم وأبو الضحى يجتمعون في المسجد يتذاكرون الحديث، فإذا جاءهم شيء ليس عندهم رواية رموا إبراهيم بأبصارهم"[1].

فالواضح من كلام إسماعيل بن أبي خالد أن الشعبي كان يتذاكر الحديث مع إبراهيم، و لم يكن هذا إلا لمعرفته بقدره في علم الحديث.

ولكن مع اهتمام إبراهيم النخعي بعلم الحديث هذا الاهتمام الكبير، لم يصرفه هذا عن اتخاذ طريقة أصحاب الرأي كوسيلة لاستنباط الأحكام؛ وذلك يرجع إلى تأثره بشيوخه الثلاثة: خاليه الأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس وشريح القاضي.

فعلقمة والأسود اللذان تربى إبراهيم على علمهما وأخلاقهما حتى قال الناس: "لا ترى أحدًا أشبه بعبد الله بن مسعود من علقمة، ولا ترى أحدًا أشبه بعلقمة من إبراهيم"[2] و لم يأت هذا التشابه في السمت والأخلاق إلا بسبب تأثره به.

وذلك في حين أن شريحًا أثر في إبراهيم في الجانب العملي ويقول في هذا ؟ أستاذنا الدكتور/ محمد أحمد سراج: "ولقد اطلع إبراهيم على فقه شريح وقضاياه، إذ صاحبه في مجلسه مدة كبيرة كأمين القاضي أو صاحب مجلسه أو معاون له، وفى أخبار القضاة أن إبراهيم كان جلوازًا لشريح، ولابد أنه أفاد من ذلك فائدة كبيرة، كان قد تلقى العلم النظري على يد أخواله الأسود وعلقمة ثم سمع من غيرهم وفى مجلس شريح وجد

---

(١) انظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم (٤/ ٢٢١) بتصرف يسير، والمعرفة والتاريخ للفسوى (٢/ ٦٠٧).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (١٨٩/٦).

نفسه أمام تجربة من نوع آخر أفادته في التعرف على الحوادث التي تحدث في بلده، وكيف كان يقابلها قاض ممتاز كشريح.

ولا بد أن إبراهيم كان يعاود النظر في بعض هذه القضايا بناء على معلوماته الخاصة وخبرته الشخصية"[1].

وهذا الرصد لمجال التأثر الممكن لإبراهيم بشريح يُعَدُّ بابًا واسعًا يمكن أن تشمله دراسة تبحث روافد فقه إبراهيم النخعي وأثر شريح فيه، وهذا ما قرره الدكتور/ سراج حين حصر مجال التأثر بشريح في الجانب العملى التطبيقى، وهوا لجانب المتمثل في القضاء الذي كان يتميز به فقه شريح عن غيره من الفقهاء.

ونستطيع أن نقول لما سبق: إن إبراهيم كان بحق حصادًا جيدًا لفقه سابقيه ولجهده الفقهي، ويظهر الجانب الأول في استفادته العظيمة من خاليه الأسود وعلقمة، ويظهر الجانب الثاني من استفادته من عمله بالقضاء كمعاون لشريح، وبهذا يكون عمله مع شريح كأمين مجلسه نافذة له يطل منها على الوقائع والنوازل ليعمل فكره فيها، وهذا هو الشطر الثاني لحصاده الفقهي.

---

(١) رسالة: إبراهيم النخعي وفقهه بين معاصريه "رسالة ماجستير، قسم الشريعة، كلية دار العلوم للدكتور/ محمد أحمد عبد الهادي سراج، ص ١٧٧، ١٧٨.

(٢)

عامر بن شراحيل الشعبي[1]

❁ هو: عامر بن شراحيل الشعبي.

❁ والشعبي أحد فقهاء الكوفة الكبار الذين انتهى إليهم علم الصحابة وكبار التابعين وتظهر مكانته واضحة جلية حين يقول عنه مكحول: "ما رأيت أحدًا أعلم بسنة ماضية من الشعبي"[2].

وقد سمع الشعبي من الصحابة وكبار التابعين أمثال أبي هريرة وابن عمر وأبي موسى وأنس بن مالك وعبد الله بن عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، والحسن بن على، وعلقمة بن قيس النخعي، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وشريح والحارث الأعور، والأسود بن يزيد، وغيرهم[3].

وعند تأمل من سمع منهم الشعبي نجدهم لا ينتمون لمدرسة فقهية واحدة، بل منهم من ينتمي لمدرسة الرأي أمثال علقمة والأسود، ومنهم من ينتمي لمدرسة الحديث كأنس بن مالك وابن عمر، وغيرهما[4].

والذي أراه أن الشعبي قد تأثر بشيوخه المنتمين لمدرسة الحديث أكثر من تأثره بغيرهم من أهل مدرسة الرأي، وهناك أمارات تشير إلى ذلك منها:

١- قوله لرجل سأله عن شيء فقال:كان ابن مسعود يقول فيه كذا، وكذا، قال: أخبرني أنت برأيك، فقال: ألا تعجبون من هذا أخبرته

---

(١) انظر ترجمته في: تهذيب الكمال (١٤/٢٨-٤٩).

(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد (٦ / ١٧٧)

(٣) انظر: تهذيب الكمال للمزي (١٤/٣٠)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٦/١٧٢).

(٤) انظر: الحركة الفقهية الإسلامية د/ إمبابي (١٨٥).

عن ابن مسعود ويسألني عن رأيي، وديني عندي آثر من ذلك، والله لئن أتغنى بأغنية أحب إلى من أن أخبرك برأيي"[1].

وما ذكره الشعبي في هذا النص يدل على كراهيته للرأي وحبه للإفتاء بالمأثور، ولو كان هذا المأثور عن رأس من رؤوس مدرسة الرأي وهو عبد الله بن مسعود، ولكنه يمثل عند الشعبي فقيه الصحابة الذي نشر العلم بالكوفة.

٢- ما قاله عند دخوله المسجد فسمع ضوضاء وأصوات حماد بن أبي سليمان وأصحابه حيث قال: "والله لقد بغض إلى هؤلاء المسجد حتى تركوه أبغض إلى من كناسة دارى"[2]

وما قاله الشعبي هنا قصد طريقة هؤلاء لا يقصد تصرفهم فقط، ويظهر ذلك في استخدامه للفظ الإشارة للجمع (هؤلاء) الذي يدل على اجتماعهم على شيء وهو الرأي وعلى هذا يكون قول الشعبي هذا من أشد ما قيل في حماد وأصحابه.

٣- وقد يصل الأمر عند الشعبي في استهجان الرأي لأشد من ذلك عندما يُسأل عن مسألة فلم يجد فيها جوابًا، فقيل له: قل برأيك ؟ قال: كم تصنع برأيي؟ بُل على رأيي"[3].

وهذا القول من الشعبي يُعَدُّ من أقذع ما قيل في الرأي، ويوضح منهجه بأنه إن لم يجد شيئًا مأثورًا لم يفت في المسألة.

---

(١) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم (١/٧٤)، والحركة الفقهية الإسلامية (ص٢٠٥).
(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٦ / ١٧٥).
(٣) انظر: المصدر السابق (٦ / ١٧٤).

٤- هذا بجانب سكوته عن الفتوى إن لم يعلم جوابًا وعدم استخدامه للرأي؛ ولذا كثر في كلامه عند الإجابة عن بعض المسائل التي لا يعلم لها جوابًا، (لا أدرى)، ونراه يرسم ذلك بلفظ فيقول: "لا أدرى نصف العلم"[(١)].

وهذه العبارة من الشعبي توضح أنه لن يحاول استخدام الرأي فيما لا يعلمه، بل سيكتفي بقول (لا أدرى) وهذا كان حاله بالفعل، وهذا ما جاء في وصف الصلت بن بهرام لأجوبة الشعبي على مسائل، فقال: "ما رأيت رجلا بلغ مبلغ الشعبي أكثر يقول: لا أدرى، منه"[(2)].

٥ - وقد كان كلام الشعبي عن عدم القياس يوضح موقفه من الرأي، فقد روى عن الشعبي أنه قال: لأحد أصحابه ينصحه: "إذا سئلت عن مسألة فلا تقس شيئًا، فربما حرمت حلالا أو أحللت حرامًا"[(٣)].

ويظهر من خلال هذا النصح من الشعبي أنه ينصح صاحبه الفقيه بأن يترك القياس الذي يُعَدُّ أكثر الأدلة استخدامًا في الاستنباط عند أصحاب مدرسة الرأي.

ولما سبق ملت لكون الشعبي كان منتميًا لمدرسة الحديث؛ لأننا سبق أن ذكرنا أن المدرسة الفقهية لا تنحصر في مكان معين لأن المدرسة عبارة عن سمات غالبة على فقه فريق من الفقهاء فتجعلهم يتصفون ويتسمون بهذه السمات، كما حدث مع مدرستي الرأي والحديث.

---

(١) انظر: الحركة الفقهية الإسلامية، د/ إمبابي (١٨٥).
(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٦ / ١٧٤).
(٣) انظر: حجة الله البالغة، الدهلوي (١/ ١٢١).

والجدير بالذكر أن هذه السمات المسيطرة على فريق معين لا يمكن قصرها على مكان معين مثل الكوفة لمدرسة الرأي، والمدينة لمدرسة الحديث؛ لأن الفكرة أكثر تحررًا من ذلك.

والشعبي مع انتمائه لمدرسة الحديث فلم يمنعه ذلك من الرواية عن كثير من أهل مدرسة الرأي مثل شريح، بل لقد كان الشعبي مكثرًا بدرجة لافتة للنظر في الرواية عن شريح في أكثر فتواه بالأثر، حتى وجدنا شريحًا يقول: "إنما اتبع الأثر" مع فقه وعلم، فأدى ذلك لاهتمام الشعبي بالرواية عن شريح، وليس هناك ما يمنع من أن تكون بذرة حب الشعبي للمأثور ورواية الحديث بذرها في عقله شريح القاضي عندما يقول في رواية يرويها عنه الشعبي: "ويحك إن السنة سبقت قياسكم، فاتبع ولا تبتدع فإنك لن تضل ما أخذت بالأثر"[1].

فهذا النص الذي يشبه المنهج الذي يمكن أن يسير عليه الفقيه، قد يكون له أثر كبير في توجه الشعبي للاهتمام بالمأثور مما جعله يغلب عليه سمات أهل مدرسة الحديث.

---

(١) انظر: المحلى لابن حزم (١٠ / ٤٣٧).

(٣)

محمد بن سيرين[1]

❁ هو: محمد سيرين أبو بكر الأنصاري الأنسي البصري مولى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ولد قبل انتهاء خلافة عثمان رضي الله عنه[2] بسنتين.

وسمع أبا هريرة وعمران بن حصين وشريحًا وعدي بن حاتم وعبيد السلماني وأنس وخلقًا كثيرين.

وروى عنه: قتادة وأيوب ويونس بن عبيد وابن عون وخالد الحذاء وكثيرون وقال هشام بن حسان: أدرك ثلاثين صحابيًّا [3].

وكان ورعًا عالمًا فقيهًا، قال فيه عوف الأعرابيُّ كان ابن سيرين حسن العلم بالفرائض والقضاء والحساب [4].

وقال فيه مورق العجلي: ما رأيت أحدًا أورع فقهًا ولا أفقه في ورعه من محمد بن سيرين [5]. وقال فيه عثمان البتي: لم يكن بالبصرة أحدًا أعلم بالقضاء من ابن سيرين [6].

---

(١) انظر ترجمته في: طبقات ابن سعد (١٩٣/٧)، تاريخ بغداد (٣٣١/٥)، طبقات الفقهاء للشيرازي (ص٨٨)، حلية الأولياء (٢٦٣/٢)، النجوم الزاهرة (٢٦٨/١) شذرات الذهب (١٣٨/١).

(٢) انظر: تهذيب الكمال للمزي (٣٤٤/٢٥، ٣٤٩).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٦٠٧/٤).

(٤) انظر : تاريخ البخاري (٩١/١)، الجرح والتعديل للرازي (٢٨٠/٢/٣).

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (١٩٦/٧).

(٦) انظر: طبقات ابن سعد (١٩٦/٧)، تاريخ بغداد، للخطيب (٣٣٧/٥).

وقال فيه ابن جرير الطبري: كان ابن سيرين فقيهًا عالمًا ورعًا أديبًا كثير الحديث، صدوقًا، شهد له أهل العلم والفضل بذلك، وهو حجة[1].

وكان له معرفة بالتعبير، وكان له تأييد إلهي في ذلك.

وواضح أنه خبر فقهاء الكوفة بصورة جيدة فقد قال عنهم: ما رأيت سود الرؤوس أفقه من أهل الكوفة إلاَّ أن فيهم حدة[2].

وهذا النص يوضح صلة ابن سيرين بفقه الكوفة وفقهائها وتزداد هذه الصلة عندما يذكر من فقهاء الكوفة شريح؛ لأن محمد بن سيرين قال فيه العجلي: "بصريٌّ تابعيٌّ، ثقة، وهو أروى الناس عن شريح وعبيدة وإنما تأدب بالكوفيين أصحاب عبد الله"[3].

فالواضح من نصِّ العجليِّ أن ابن سيرين كان شديد الصلة بفقه شريح حتى جعله العجلي أكثر الناس رواية عن شريح.

وهذه الكثرة تدل على اعتناء من محمد بن سرين بفقه شريح الذي كان كثير من أهل الحديث قد يزهدون فيه انصرافًا عنه لعلم الحديث، ولكنَّ ابن سيرين اهتم بقضاء شريح فرواه بكثرة، والناظر في فقه ابن سيرين يستطيع أن يلمح أثر فقه شريح فيه.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/٦١١).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: ثقات العجلي (ص٤٧).

(٤)

الحكم بن عتيبة[١]

❁ هو الحكم بن عتيبة أبو محمد الكندي مولاهم الكوفي، عالم أهل الكوفة.

كان صاحب عبادة وفضل وعلم قال فيه سفيان بن عيينة:

"ما كان بالكوفة بعد إبراهيم والشعبي مثل الحكم وحماد"[٢].

حدَّث عن أبي جحيفة السوائي، وشريح، وعبد الرحمن بن أبي ليلى وأبي وائل شقيق بن سلمة، وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وخلق كثير[٣].

وكان الحكم فقيهًا ومع كونه من أقران إبراهيم النخعي ولكنه روى عنه وأخذ عنه العلم حتى قال فيه أحمد بن حنبل: "هو أثبت الناس في إبراهيم"[٤]. وقال فيه يحيى بن معين عندما سأله الدارمي: الحكم أحب إليك في إبراهيم أو الفضيل بن عمرو؟ فقال: "الحكم أعلم"[٥]. وقال الأوزاعي: "حججت فلقيت عبدة ابن أبي لبابة، فقال لي: هل لقيت الحكم، قلت: لا، قال: فألقه، فما بين لابتيها أفقه منه"[٦].

---

(١) انظر ترجمته في: ميزان الاعتدال (٢/٢٠١).
(٢) انظر: الجرح والتعديل للرازي (٣/ترجمة ٥٦٧).
(٣) انظر: تهذيب الكمال للمزي (٧/١١٥).
(٤) انظر: الجرح والتعديل للرازي (ترجمة٥٦٧).
(٥) انظر: تاريخ يحيى بن معين برواية الدوري (٧٦).
(٦) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/٢٠٩).

وقد وصفه بالعلم والفقه كثير، من العلماء، من ذلك ما قاله العجلى: "كان الحكم ثقة ثبتًا فقيهًا من كبار أصحاب إبراهيم وكان صاحب سنة واتباع"[(١)].

والناظر في ترجمة الحسين بن عمارة من ميزان الاعتدال أنه روى عن الحكم بن عتيبة قريبًا من عشرة آلاف قضية من شريح وغيره[(٢)].

وهذا العدد من الأقضيات المذكورة وإن كانت مبالغًا فيها وقد يصح منه عدد لا يصل إلى هذه الكثرة، ولكنه يكشف عن اهتمام خاص من الحكم بجمع أقضيات شريح القاضي.

❁ تصحيح:

وقع لي أثناء بحثي في المصادر لجمع مادة الدراسة أثر له صلة وثيقة بالحديث عن تلاميذ شريح، وهو أثر مروى في عدد من المصنفات، وهو ما يروى عن تميم بن عطية قال:سمعت مكحولا يقول: قدمت إلى الكوفة، فاختلفت إلى شريح ستة أشهر ما أسأله عن شيء اكتفى بما يقضى"[(٣)].

وهذا الأثر كان من الممكن إذا قبل بغير تمحيص، أن يضيف إلى تلاميذ شريح تلميذًا كبيرًا وعالمًا جليلا، ولكن هذا الأثر يصعب أن يكون ثابتًا؛ ولذا يكون من الصعب قبول أن مكحولا تتلمذ على يد شريح، وذلك لأسباب، منها:

---

(١) انظر: الثقات، للعجلي (٢٤٥).

(٢) انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي (١/٥١٥).

(٣) انظر: للمعرفة والتاريخ، للفسوي (٢/٦٠٣)، سير أعلام النبلاء (٥/١٦١)، المراسيل لابن أبي حاتم (٢١٣).

١- أن علماء الجرح والتعديل نصوا على عدم إدراك مكحول لشريح ومن ذلك ما قاله ابن أبي حاتم: " قال أبيّ: لم يدرك مكحول شريحًا، هذا وهم"[(١)].

ومعنى كلام أبي حاتم أن هناك خطأ وقع من رواة هذا الأثر وسبب ذلك أن مكحولا لم يدرك شريحًا.

وقد نقل الحافظ ابن حجر عن أبي مسهر أنه قال: "لم ير شريحًا"[(٢)] وهذا نص قاطع لعدم إمكانية رؤية مكحول لشريح.

٢- أن سعيد بن عبد العزيز روى عن مكحول أنه قال: "ما لقيت مثل الشعبي"[(٣)] فمنهم بعض العلماء من ذلك أنه لم يلق شريحًا، ويظهر ذلك من كلام أبي مسهر حيث قال: "حديث تميم بن عطية ليس بمحفوظ؛ لأن مكحولا لو اختلف إلى شريح لم يقل ما لقيت مثل الشعبي"[(٤)].

فالواضح أن أبا مسهر، وهو راوي حديث مكحول "ما لقيت مثل الشعبي عند الخطيب البغدادي يستنكر أن يكون مكحول قد قال: إنه تخلف لشريح ستة أشهر يسمع قضاءه، هذا الحديث الذي يرويه تميم بن عطية عن مكحول.

ويكون استنكار أبي مسهر قائمًا على استبعاد أن يتقابل مكحول مع شريح، ثم يفضل عليه تلميذه عامرًا.

---

(١) انظر: المراسيل لابن أبي حاتم (٢١٣).

(٢) انظر: تهذيب التهذيب (٢٩٣/١٠).

(٣) انظر: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (٢٣٠/٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٩٨/٤).

(٤) انظر: المعرفة والتاريخ، للفسوي (٦٠٤/٢).

فنخلص مما سبق إلى أن مكحولا يصعب أن يكون تلميذًا لشريح وبهذا يكون خارجًا عن مجال دراستي؛ لأنه لا يحمل أي تأثر بمنهج وفكر شريح القاضي الفقهي؛ ولـــذا لا نستطيع أن نجعله مجالا لبحث نرصد فيه مدى تأثير شريح القاضي في الفكر الفقهي بعده، وبهذا تكون هذه الكلمات لتصحيح ما يقع من خطأ عند نسبة مكحول للتلمذة على يد شريح القاضي.

obeikandl.com

المطلب الثاني
مكانته العلمية

التمهيد:

إن الفقيه في حياته ينال مكانة تكشف عن مدى تفاعله مع مجتمعه، وهذه المكانة التي يحصل عليها الفقيه قد تكون عند عامة الناس بحسن صيته وقدرته على حل مشاكل مجتمعه، وقد تكون عند علماء الأمة وهذه هي المكانة التي أتحدث عنها؛ لأنها في الحقيقة تعد التقويم الحقيقي للفقيه؛ لما تحتوى عليه من تقدير علمي من أهل العلم، وإظهار فضل صاحب هذه المكانة.

هذا بجانب مقارنة هذا الفقيه بغيره من أقرانه الذين يشاركونه العمل على نصرة هذا الدين.

ولذا كان الحديث عن المكانة العلمية ألصق بالدراسات المنهجية من الحديث عن المكانة لدى عامة الناس؛ ولأن هذه المكانة في الحقيقة هي الدافعة لإنشاء مثل هذه الدراسات التي تجعل أحد المناهج موضوعًا لها.

وشريح القاضي مكانته العلمية شهد له بها شيوخه وتلاميذه وسأحاول تصوير هذه المكانة بتحديد نقاط الحديث عنها في خمس نقاط هي:

١- أقوال العلماء فيه: الصحابة - التابعين.

٢- أقوال العلماء في اجتهاده.

٣- أقوالهم في الاحتجاج بآرائه.

٤- توليه القضاء.

٥- تصنيفهم في أقضياته.

ذلك مع مراعاة ربط هذه النقاط بالحديث عن منهجه الفقهي، وذكر قيمة كل منها في تبيين مكانة شريح القاضي العلمية.

(١)
أقوال العلماء فيه (الصحابة - التابعين)

عاش شريح عمرًا طويلا، فعاصر ثلاث طبقات من الفقهاء هم: فقهاء الصحابة (وهم شيوخه)، وفقهاء كبار التابعين (وهم أقرانه) وفقهاء صغار التابعين (وهم تلاميذه).

وسأذكر هنا كلام شيوخه من الصحابة فيه، وكلام تلاميذه من التابعين.

أ – أقوال الصحابة فيه:

كان شريح فقيهًا متميزًا بسمات معينة، وقد جعلته هذه السمات يلفت أنظار كبار الصحابة الذين عاصرهم، ومن هؤلاء الإمامان عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ﷺ.

وهنا سأركز الكلام على رأى عمر وعلى ﷺ في شريح، لأوضح مكانة شريح ﷺ عندهما.

أولا: رأى عمر ﷺ فيه:

الثابت أن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ﷺ هو أول من ولى شريحًا القضاء؛ وذلك عندما أخذ فرسًا من رجل على سوم الشراء فعطب في يد عمر ﷺ، فطلب الرجل أن يضمن له عمر الفرس، فقال له عمر: اجعل بيني وبينك رجلا. قال الرجل: شريح العراقي، فقال شريح للإمام عمر: خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت. فقال له عمر: وهل القضاء إلا هذا: فأرسله عمر قاضيًا على الكوفة[1].

---

(١) انظر: السنن الكبرى، للبيهقى: (١٠٤/٦).

وهذه الرواية تفيد أن عمر ﷺ أعجبه قضاء شريح الذي قضى به بينه وبين صاحب الفرس، فأرسله لذلك، قاضيًا على الكوفة، وهذا يعنى أن عمر ﷺ أحس بملكة شريح الفقهية في هذا الحكم.

وهذه النظرة العميقة في إمكانيات وملكات شريح الفقهية من قبل عمر ﷺ، لعلها لم تقف عند حد جعل شريحًا فقيهًا صالحًا للقضاء، بل تابع عمر ﷺ شريحًا متابعة دقيقة حتى وصل لرأى في شريح وهو أنه يصلح أن يجتهد فيما يعرض عليه من أقضيات، فقال له عمر ﷺ في رسالته له: فإن لم تجد – أي في كتاب الله ولافى سنة النبي ﷺ، ولافى إجماع السابقين – فاجتهد فيه برأيك.

فعمر ﷺ في هذا النص يرى أن شريحًا قد وصل لمكانة علمية تؤهله لأن يجتهد برأيه؛ ولعل هذا الرأي وصل إليه عمر ﷺ بعد متابعة لقضاء شريح وملاحظة لعلمه وفقهه(١).

ثانيًا: قول على ﷺ فيه:

قد كان انتقال على ﷺ إلى الكوفة، وجعلها مقرًا للخلافة سببًا في إثراء الحياة الفكرية بالكوفة، وخاصة علم الفقه الذي كان له اهتمام خاص، لعلاقته الشديدة بالواقع اليومي، والحياة المعيشية.

وأثر علىٌّ ﷺ في الفقه الكوفي تأثيرًا شديدًا بسبب متابعته الدقيقة والقريبة للعملية الفقهية بالكوفة؛ ولذا كان لعلى ﷺ آراء في كل دقائق الفقه الكوفي؛ ولذا ليس غريبًا أن تجده يضع تقويمًا لشريح القاضي يحدد مكانته العلمية في نظر على، وهذا ما نراه واضحًا فيما روى عن على ﷺ

---

(١) انظر: السنن الكبرى، للبيهقي (١٠/١١٠).

قال: " يا أيها الناس يأتوني فقهاؤكم يسألوني وأسألهم، فلما كان من الغد غدوا إليه حتى امتلأت الرحبة فجعل يسألهم ما كذا ما كذا، ويسألونه يا أمير المؤمنين ما كذا فيخبرهم، حتى ارتفع النهار وتصدعوا غير شريح جاث على ركبتيه لا يسأله عن شيء إلا قال كذا وكذا، ولا يسأله شريح عن شيء إلا أخبره به. فسمع على يقول: قم يا شريح فأنت أقضى العرب[1].

وهذا النص يوضح عدة أمور كلها تبين مكانة شريح العلمية سواء أكان ذلك عند على ﷺ أم بين أقرانه من الفقهاء.

❁ ومن هذه الأمور:

١- شهادة عليٍّ لشريح القاضي بأنه أقضى العرب وأرى أن استخدام الإمام على للفظ (أقضى) وليس (أفقه) -مع أن المجتمعين من الفقهاء- يرجع لمعرفة الإمام عليٍّ بعمل شريح بالقضاء فأراد أن يخبره بأنه -أي الإمام عليًا- يثق فيه وفى عمله بالقضاء، بل يقدمه على سائر قضاته في العلم، وذلك لاستخدامه أفعل التفضيل مطلقًا من غير قيد بمكان محدد من أرض العرب.

٢- تمكن شريح العلمي لدرجة أن هذا النص يحمل بداخله بطريقة التضمين تفضيل شريح على سائر الموجودين يومها بالرحبة، وهذا في رأى علىﷺ.

٣- أن شهادة الإمام على لم تكن مبنية على سماعه مدحًا لشريح أو غير ذلك من أساليب الأخبار عن مكانة العلماء، بل كانت هذه الشهادة

---

(١) انظر: حلية الأولياء، للأصبهاني (٤/١٣٤) بتصرف يسير.

مصدرها المعاينة والمدارسة والنقاش، فهي شهادة علمية دقيقة نتيجة فحص قام به الإمام عليٌّ ﷺ لمحصلة هذا اللقاء مع فقهاء الكوفة.

٤- أن قول على ﷺ لشريح: (قم يا شريح فأنت أقضى العرب): يقتضى أن شريحًا كان عنده المزيد، ولكن الإمام عليًا اكتفى منه بذلك؛ لأنه دل عنده على المكانة العلمية لشريح، وهذا ما كان يريد عليٌّ الوصول إليه.

ولقد ظل الإمام عليٌّ متابعًا لشريح وفقهه، بل ويجعله يتكلم أمامه في عويصات المسائل، ومن ذلك أن امرأة جاءت لعلى ﷺ تخاصم زوجها طلقها فقالت: قد حضت في شهر ثلاث حيض. فقال على لشريح: اقض بينهما. قال: يا أمير المؤمنين، وأنت هاهنا؟! قال: اقض بينهما: قال: إن جاءت من بطانة أهلها من يرضى دينه وأمانته يزعم أنها حاضت ثلاث حيض تطهر عند كل قرء، وتصلى، جاز لها، وإلا فلا. قال عليٌّ: قالون. وقالون بلسان الروم: أحسنت[1].

❁ **ففي هذا النص يوضح عدة أمور، منها:**

١- أن شريحًا له مكانة عند عليٍّ ﷺ مما جعله يقدمه ليقضى في مسألة بين يديه.

أن شريحًا اجتهد برأيه في هذه المسألة، وأن عليًا ﷺ رضي هذا الاجتهاد منه ومدحه، وهذا يعنى أنه يرى شريحًا مستحقًا للاجتهاد.

ب- أقوال التابعين فيه:

لقد كان التابعون الذين عاصرهم شريح ينقسمون لقسمين:

---

(١) أخبار القضاة لوكيع (١٩٤/٢).

كبارهم: وهم أقرانه، وهؤلاء أمثال علقمة بن قيس والأسود بن يزيد، وغيرهما، وهؤلاء لن أذكر أقوالهم لعدم حصولي خلال بحثي على كلام لهم في شريح، ولأن كلام الأقران بعضهم في بعض ينظر إليه بعين الشك؛ لما يصنعه الاقتران في النفوس.

وصغارهم: وهم تلاميذه، وهؤلاء أمثال إبراهيم النخعي والشعبي وغيرهما، وهؤلاء سأذكر كلامهم؛ لأنه شهادة على فقه شريح حتى زمن وفاته.

وكان من أقرب تلاميذ شريح إليه الشعبي ومحمد بن سيرين، وهما من سأذكر كلامهما في تقويم فقه شريح.

أولا: قول عامر بن شراحيل الشعبي رحمه الله فيه:

كان الشعبي من أخص تلاميذ شريح القاضي، الذين حرصوا على جمع أقضياته، مما دفع أحد الباحثين إلى أن يقول: " ويكاد يكون ثابتًا أن وكيعًا قد استخدم كتبًا عن شريح ترجع أول الأمر إلى تلاميذ شريح مثل: الشعبي...." [(١)].

فالشعبي اهتم اهتمامًا كبيرًا بجمع أقضيات شريح، مما جعل الإمام وكيعًا يخصص له قسمًا في ترجمة شريح في كتابه أخبار القضاة لما رواه الشعبي عن شريح[(٢)].

وهذا القرب بين الشعبي وشريح وفقهه، جعل الشعبي قادرًا على النظر الدقيق في آثار شريح في محاولة منه لتقويمه تقويمًا علميًا دقيقًا، وهذا ما

---

(١) انظر: تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين (م١/جـ٣/١٧)، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، إدارة الثقافة سنه ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٢) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/١٩٤).

حدث فيما يمكن أن نسميه بالتقويم المقارن، وفيه يقارن الشعبي بين شريح وعدد من أقرانه فيقول: "أحدثك عن القوم كأنك شاهدهم، كان شريح أعلم بالقضاء، وكان عبيدة يوازى شريحًا في علم القضاء، وأما علقمة فانتهى إلى قول عبد الله لم يجاوزه وأما مسروق فأخذ من كل، وأما الربيع بن خثيم فأقل القوم علمًا وأورعهم ورعًا"(١).

وهذا التقويم المقارن يصف فيه الشعبي مكانة كل واحد من كبار علماء الكوفة مقارنًا بينهم، ونستطيع أن نستخلص عدة أمور من:

١- أن شريحًا كان أعلم القوم في علم القضاء، وأرى أن استخدام الشعبي لتعبير (علم القضاء)، لم يكن إلا للتنبيه على تمكن شريح مما كان يؤديه من عمل؛ لأنه يحتاج إلى نص، في حين أن إتقان علم القضاء بلا شك يشتمل على التمكن من علم الفقه؛ إذ لا فرق بين القضاء والفقه في أصل مادة العلم اللذان يعتمدان عليها.

ولأن الشعبي يتكلم عن وصف للعلماء، فذكرهم بأشهر ما يتميزون به فيه، ولكنه يعلم أن ألفاظه كلها تجعلهم مجتمعين في صفة واحدة وهى الفقه في الدين، وهو الذي كان يعبر عنه بلفظ (العلم)، الذي استخدمه في آخر النص في حديثه عن الربيع.

٢- أن شريحًا يوازيه عبيدة في علم القضاء، وهذا يعنى أن شريحًا كان في مرتبة يوازيه فيها عبيدة، وكأنه يحكم بعدم سبق واحد منهما للآخر.

---

(١) انظر: المعرفة والتاريخ، للفسوي (٢/٥٥٧)، العلل، لعلى بن المدينى (٤٥).

٣- أن شريحًا عنصر أصيل في المقارنات التي تتحدث عن كبار علماء الكوفة، فلفظ الشعبي (القوم) يشعر بأن هؤلاء العلماء لهم شأنهم، الذي جعلهم لا يحتاجون إلى تعريف.

وبهذا يكون شريح ذا مكانة عالية لدى الشعبي تجعله يفوق غيره من أقرانه ممن ينسبون للفضل والفقه، وليس تعبيره بلفظ (القضاء) إلا تعبيرًا عن عمل ودور يقوم به شريح في المجتمع.

ثانيًا: قول محمد بن سيرين -رحمه الله- فيه:

كان ابن سيرين من أكثر الذين رووا عن شريح، وقد لازمه مدة طويلة مما جعل الإمام وكيعًا يخصص له قسمًا هو الآخر في ترجمته لشريح لما رواه ابن سيرين عن شريح[١].

ولقد تعدد شيوخ ابن سيرين مما جعله يستخدم نفس طريقة التقويم المقارن، حيث جاءت تقويماته تجمع عددًا من الشيوخ وتقارن بينهم، ولقد كان شريحًا طرفًا أصيلا في هذه التقويمات التي منها قول ابن سيرين: "أدركت الكوفة وبها أربعة يعد بالفقه؛ فمن بدأ بالحارث ثنى بعبيدة، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث ثم علقمة الثالث ثم شريح الرابع، قال:وإن أربعة أخسهم شريح لخيار"[٢].

وهذا التقويم المقارن، وإن كان يضع شريحًا في آخر ترتيب المقارنة، ولكنه يعلن أن شريحًا لما تأخر مع جلالته وعلو شأنه في هذه المقارنة دل على أن الجميع خيار، ونستطيع أن نستخلص من هذا التقويم أمورًا، أهمها:

---

(١) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/٢٩٤).

(٢) انظر: المعرفة والتاريخ للفسوي (٢/٥٥٧)، والعلل لعلى بن المديني (٤٥).

١- أن شريحًا أحد أربعة فقهاء كان عليهم مدار الفقه والعلم بالكوفة زمن تلقى ابن سيرين للعلم.

٢- أن شريحًا وإن شاركته هؤلاء الفقهاء في رئاسة العلم والفقه في الكوفة، ولكنه يأتي في آخر ترتيب المفاضلة بين الفقهاء الأربعة.

٣- أن هذا التقويم وإن احتوى على كلمات يلحظ المتأمل من ألفاظها أن التقويم مسلك عام للفقهاء مثل (من بدأ.... ثنى)، ولكن هذا التقويم لا يمكن اعتباره مسلكًا عامًا للعلماء في تقويمهم لكبار علماء الكوفة لمخالفته تقويم الشعبي السابق ذكره؛ ولـــذا يصير هذا التقويم خاصًا بابن سيرين ولعله ذهب لهذا التقويم لسببين، هما:

أ- إدخال عنصر رواية الحديث والعلم به كعنصر في التقويم، وهذا يظهر من خلال قول آخر له، قال فيه: قدمت الكوفة، وبها أربعة آلاف يطلبون الحديث، وسرج أهل الكوفة أربعة: عبيدة السلماني، والحارث الأعور، وعلقمة بن قيس وشريح وكان أقلهم[1].

فهذا النص يجعل عنصر المعرفة بعلم الحديث داخلا في التقويم، ويتضح هذا بجلاء مع محافظة ابن سيرين على نفس الترتيب.

ب- أن هؤلاء العلماء تدخل في تقويمهم هذا نشاطهم التعليمي في خدمة طلاب العلم والتدريس لهم، و يظهر ذلك من لفظ (سرج أهل الكوفة) الذي يدل على انتفاع الناس بهؤلاء العلماء.

---

(١) انظر: تهذيب الكمال للمزي (٤٣٩/١٢).

(٢)

أقوالهم في اجتهاده

لما كانت النصوص الشرعية متناهية والوقائع غير متناهية كان من الضروري أن يحاول الفقهاء إيجاد سبيل يستطيعون من خلاله إعمال المتناهي في غير المتناهي؛ وهنا بدأ الفقهاء يجتهدون بعد وفاة النبي ﷺ محاولين بهذا الاجتهاد أن يحلوا ما يعرض لهم من مشكلات.

ولكن هذه المحاولة التي يقوم بها الفقيه لابد أن يكون أهلا لها، ولديه قدرة القيام بها؛ ولذا يصعب أن نجد عصرًا كل أفراده مجتهدون، ولو كان هذا العصر عصر الصحابة رضوان الله عليهم فقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أن الصحابة ليسوا كلهم مجتهدين، فقال: "ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم، وإنما كان ذلك مختصًا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه وشابهه ومحكمه وسائر دلالته بما تلقوه عن النبي ﷺ أو ممن سمعه منهم من عليتهم، وكانوا يسمون لذلك القراء أي الذين يقرءون الكتاب؛ لأن العرب كانوا أمة أمية، فاختص من كان منهم قارئًا للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ، وبقى الأمر كذلك صدر الملة"[(١)].

---

(١) مقدمة: ابن خلدون لابن خلدون، المكتبة التجارية الكبرى، بدون تاريخ (٤٤٦)، وفى هذا الكلام رد على قول البوصيري في الهمزية (كلهم في أحكامه ذو اجتهاد: وصواب وكلهم أكفاء) وإن سكت عن تتبعه كل شراحها.

والصحابة أنفسهم داخلون في خطاب: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]. فيقتضى أن بعضهم يسأل غيره من أهل العلم المجتهدين الذين لا يقلدون غيرهم؛ وذلك دليل على أن فيهم من ليس مجتهدًا[2].

ولذا أحسن كاتب مقدمة موسوعة جمال عبد الناصر الفقهية حين قال: "والمجتهدون الأولون هم الفقهاء من أصحاب رسول الله ﷺ وأصحاب رسول الله ﷺ، كانوا كغيرهم من الناس فمنهم العامة الذين لم يعرفوا بفقه ولا رواية وإذا نزلت بأحدهم نازلة سأل فيها أهل الذكر"[3].

ولما سبق كان الاجتهاد صفة يصل إليها بعض العلماء، وذلك بعد بذل مجهود يتحصل به لديهم ملكة يستطيعون من خلالها استنباط الأحكام الشرعية بغير اعتماد على غيرهم من الفقهاء بتقليدهم فيما يصلون إليه من الأحكام.

وكان شريح من العلماء الذين وصلوا إلى مرتبة الاجتهاد دل على ذلك دلائل وبراهين، منها:

١- أن شريحًا رأى عمر بن الخطاب فيه أنه أهل للاجتهاد وهذا ما ظهر من خلال رسالته له عندما قال له: " فاجتهد فيه برأيك"[4] فعمر بن الخطاب ﷺ يرى أنه مجتهد، ولم يكن تخييره له في بعض روايات هذه

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٣.

(٢) انظر: الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، نشأته وتطوره والتعريف به، للمهدي الوافي، دار الثقافة الدار البيضاء، سنه ١٤٠٤هـ (٧٦).

(٣) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي (١/١٥)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٤) أخبار القضاة لوكيع (٢/١٩٠).

الرسالة[1] إلا اتباعًا لطريقة عمر بن الخطاب في التحذير من التسرع في الأحكام والتروي فيها وطلب المشورة للوصول للحق.

٢- أن شريحًا اجتهد في حضور الصحابة وعلى رأسهم عليٌّ بن أبي طالب ﷺ وأقروا اجتهاده، ولم ينقدوه، فمن ذلك أن عليًا -كما سبق ذكره في رأى عليٍّ في شريح- طلب منه الاجتهاد في مسألة المرأة التي طلقها زوجها فادعت أنها حاضت ثلاث حيض في شهر فقضى فيها شريح بحضرة على ﷺ وبطلب منه. ثم مدح ما قاله شريح[2].

٣- أن شريحًا اجتهد برأيه فعلا، وذلك يستطيع إدراكه كل من نظر في أقضيات شريح، حيث كانت كثيرة كثرة يصعب معها أن يكون قلد صحابيًا أو تابعيًا فيها.

٤- أن شريحًا وصف بأوصاف تدل على اجتهاده، فمن ذلك قول عليٍّ له: "أنت أقضى العرب"[3]. وهذا يدل على أنه كأقضى العرب تعرض عليه مسائل تحتاج لاجتهاد، وهو أقدر على الفصل فيها؛ لأنه أقضى العرب.

ومن ذلك أنه وصف ولقب بالفقيه، لقبه بذلك الإمام الذهبي في السير[4] وغيره، وكان لفظ الفقيه في الصدر الأول يطلق على المجتهد، وفى

---

(١) انظر أخبار: القضاة لوكيع (٢/١٩٠).
(٢) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/١٩٤).
(٣) انظر: حلية الأولياء لأبى نعيم (٤/١٣٤).
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء الذهبي (٤/١٠٠).

ذلك يقول ابن خلدون: "وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلمًا فبذلوا باسم الفقهاء والعلماء"[1].

٥- أن شريحًا عده الإمام ابن القيم في جملة أكابر التابعين[2] الذين كانوا يفتون في الدين ويستفتيهم الناس. وهذا يعنى أنهم أكثروا من ذلك، وهذا باب عظيم للاجتهاد سلكه معهم شريح القاضي.

ومما سبق يتبين أن شريحًا كان موصوفًا مستحقًا للقب مجتهد، وبهذا يكون أهلا لإقامة دراسة تبحث اجتهاداته ومنهجه الذي استخدمه في هذا الاجتهاد للوصول للأحكام الشرعية.

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن خلدون (ص٤٤٦).

(٢) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم (١/٤٥).

(٣)
الاحتجاج بآرائه

إن الإمام شريحًا القاضي فقيه مجتهد؛ ولذا اهتم العلماء بآرائه اهتمامًا كبيرًا، ويظهر هذا الاهتمام بوضوح من خلال احتجاج العلماء بآراء الإمام شريح الفقهيه.

فقد احتج العلماء بآراء الإمام شريح القاضي في عدة مسائل سأذكر اثنتين منها باختصار[1]، وهما:

أولا: الاحتجاج بآرائه المخالفة لمنع انعقاد إجماع الصحابة:

الإمام شريح القاضي وصل إلى رتبة الاجتهاد في عصر الصحابة، ودليل ذلك أن أمير المؤمنين عمر ﷺ طلب منه أن يجتهد في رسالته له في القضاء.

ولقد ناقش الأصوليون مسألة هل ينعقد إجماع الصحابة مع مخالفة التابعي المجتهد.

فمثل كثير من المصنفين في علم الأصول التابعي المجتهد بالإمام شريح القاضي.

واختلف الأصوليون في هذه المسألة، والصحيح الذي عليه أكثر الأصوليون من الفقهاء والمتكلمين أنه لا ينعقد إجماع الصحابة مع مخالفة التابعي المجتهد.

---

(١) على أن أفصل الكلام في هاتين المسألتين عند حديثي في الباب الثالث عن أثر الإمام شريح القاضي في فقه الصحابة.

فقد نقل هذا عن أكثر الأصوليين صاحب شرح الكوكب المنير[1]، ومثل للتابعي بالإمام شريح القاضي.

وهذا الرأي في هذه المسألة تظهر معه مكانة الإمام شريح القاضي العلمية حيث ظهر أنه مخالفته محتج بها في منع انعقاد إجماع الصحابة.

ثانيًا: الاحتجاج بأقواله كالاحتجاج بقول الصحابي:

اختلف الأصوليون في الاحتجاج بقول الصحابي، واختلف القائلون بالاحتجاج بقول الصحابي، في قول التابعي هل يلحق في الحجية بقول الصحابي؟

في هذه المسألة قولان:

الأول: -وهو رأى الأكثر- عدم إلحاق قول التابعي بقول الصحابي في الحجية[2].

والثاني: إلحاق قول التابعي للمجتهد بقول الصحابة في الحجية بحيث يصير قول التابعي المجتهد الذي ظهرت فتواه زمن الصحابة حجة عند القائلين بهذا القول. ولقد ذهب لهذا الرأي بعض الحنفية منهم حافظ الدين النسفي، وابن نجيم والسرخسي[3]، ولقد مثلوا للتابعي الذي يلحق رأيه رأي الصحابة رضي الله عنهم بالإمام شريح القاضي رحمه الله.

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير لابن النجار (٢/٣٣٢).

(٢) انظر: شرح الكوكب المنير لابن النجار (٤/٤٢٦).

(٣) انظر: فتح الغفار شرح المنار لابن نجيم (٢/١٣٩-١٤١)، والمبسوط، للسرخسي (١١/١٨)- دار المعرفة، بيروت.

(٤)

توليه القضاء

إن القضاء عمل فقهي بالدرجة الأولى، يحاول فيه القاضي إيجاد الحلول للأقضيات والنوازل من خلال ما تكوّن لديه من ملكة فقهية مكنته من سهولة الاستنباط للأحكام الشرعية.

ولذا كان اختيار أي قاض لابد أن يخضع لنظر دقيق في ملكته وقدرته الفقهية، وكان لذلك الفقيه الذي يتولى القضاء يذكر هذا في ترجمته؛ لما لهذا العمل من دلالة على مكانة علمية متميزة، فترى في تراجم الفقهاء وكان "قاضى أهل بلد كذا" أو قاضى المسلمين زمن كذا".

وشريح القاضي تاريخه في القضاء لا يعرف له مثيل، سواء أكان ذلك من ناحية مدة بقائه في القضاء أم كان ذلك من ناحية النتاج الفقهي الذي خلفه في قضائه.

ويجمع الباحثون على أن تاريخ القضاء الإسلامي الحافل بأسماء العمالقة والأفذاذ من قضاة المسلمين لم يشهد رجلا تولى القضاء المدة التي تولاها شريح القاضي الكندي فقد مكث في القضاء ما يقرب من ستين عامًا -على الصحيح- يقضى فيها من عصر عمر بن الخطاب ﷺ إلى زمن عبد الملك ابن مروان الأموي.

فقضى شريح لثلاثة من الخلفاء الراشدين، وكان الصحابة موجودين في الكوفة، وعلى رأسهم عليٌّ ﷺ وشريح يقضى فيها، ويقضى بين يدي أمير المؤمنين أيضًا، وأمير المؤمنين يشهد له بالفضل والعلم والفقه.

والثابت أن عمر بن الخطاب ﷺ هو أول من ولى شريحًا سنة ثماني عشرة من الهجرة -على الصحيح- كما ذكر العلامة ابن الأثير في كتابه

الكامل عند ذكره أحداث هذه السنة فقال: "وفيها استقضى عمر شريح بن الحارث الكندي على الكوفة"[(١)].

وكان سبب تولية عمر القضاء لشريح أنه -عمر- أخذ فرسًا من رجل على سوم الشراء، فعطب في يد عمر، فقال له عمر: اجعل بيني وبينك رجلا. قال الرجل: شريح العراقي. فجاء فقال لعمر أمير المؤمنين: خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت. فقال عمر. وهل القضاء إلا هذا فأرسله قاضيًا للكوفة[(٢)].

وهذه الرواية صحيحة ثابتة عن عمر، لم يطعن فيها أحد، وهى تفيد أن عمر ولى شريحًا قضاء الكوفة.

ولكن الإمام مالكًا أنكر أن يكون أحد الخلفاء الراشدين قد استقضى، وأن أول من استقضى كان معاوية بن أبى سفيان[(٣)]واستدل على ذلك أهل المدينة بدليلين هما:

أولا: أن شريحًا لم يسمع له ذكر في زمن عثمان[(٤)].

❁ والجواب عن هذا بأمرين:

١- أن عصر عثمان ﷺ يتسم بسمة ظاهرة وهو أن الكتَّاب الذين أرخوا له اهتموا بجوانب التغيير الذي أحدثه عثمان ﷺ في الحكم، واهتموا كذلك بذكر أسباب الخروج عليه واستشهاده في نهاية الأمر.

---

(١) انظر: الكامل لابن الأثير (٢/٥٦٢).
(٢) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/١٨٩).
(٣) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٢/١٢٢).
(٤) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/١٩٠).

ولكن هذا لم يمنع كتب التاريخ أن تذكر أن شريحًا كان قاضيًا على الكوفة في زمن عثمان.

٢- وأقوى مما سبق أن تعرف أن شريحًا له أقضيات في زمن عثمان تحكى قصة قضاء لشريح يخالف فيه قضاء أمير المؤمنين عثمان ﷺ، وهي: "أن رجلا خاصم إلى شريح في ثوب باعه، فوجد به صاحبه خرقًا، قال: وقد كان لبسه. فقال الذي اشترى: قضى عثمان أمير المؤمنين: من وجد في ثوب عوارًا فليرده، فأجازه عليه شريح فقال الرجل حين خرج من عنده: إن قاضيكم هذا يزعم أن قضاء أمير المؤمنين فسل رذل، وقضاءه عدل. فلقيه شريح فقال: إذا لقيتني لقيت بي إمامًا جائرًا، وإذا لقيتك لقيت بك رجلا فاجرًا، أظهرت الشكاة وكتمت القضاء[1].

فهذا الأثر دليل واضح على وجود أقضيات لشريح في زمن عثمان، ولكنها لابد أن تكون قليلة لما كان يسيطر على الحياة العامة في زمن عثمان ﷺ من عدم استقرار.

ثانيًا: أن عمر بن الخطاب ﷺ كيف يوليه على المهاجرين؟

والجواب عن هذا "أنهم يروون هم أن عمر استقضى يزيد بن أخت النمر على المهاجرين، واستقضى سليمان بن ربيعة على أهل القادسية،

---

(١) انظر: المصنف لعبد الرزاق (١٥٤/٨)، وأخبار القضاة لوكيع (٣٣٦/٢-٣٣٧).

وكعب بن سور على البصرة، وأبا مريم الحنفي، وهؤلاء كلهم مثل شريح"[1].

وهناك جواب آخر يجيب به الإمام ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة زيد بن الخطاب حيث قال: "وهذا عندنا محمول على حضرهم، لا على من نأى عنهم، وأمروا عليه من أعمالهم غيرهم، لأن استقضاء عمر لشريح على الكوفة أشهر عند علمائها من كل شهرة وصحة"[2].

فنص الحافظ ابن عبد البر يكشف لنا سببًا آخر يمكن أن يكون هو الدافع لأهل المدينة على إنكارهم لاستقضاء الخلفاء الأربعة ألا وهو استبعادهم أن يستقضى الخليفة قاضيًا في مقر خلافته كما هو واضح من النص ومن رد الحافظ عليه، وقد يكون هذا صحيحًا بأن أول من استقضى في مكانه وترك لقاضيه هذا القضاء ولم يقض معاوية بن أبي سفيان، وفى هذا يكون كلام ابن رشد الذي نقله صاحب التراتيب الإدارية من أحسن الكلام الذي قيل في هذا الأمر حيث قال:

"هذا أصل ما تقدم أن أول من استقضى معاوية يريد أنه أول من استقضى في موضعه الذي كان فيه لانشغاله بما هو سوى ذلك من أمور المسلمين كبعث البعوث وسد الثغور، وإلا فقد ولى عمر بن الخطاب على قضاء البصرة أبا شريح الحنفي وولى كعب بن سور اللقيطي وولى شريحًا

---

(١) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/١٩٠).

(٢) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٢/١٢٢).

قضاء الكوفة يدل على صحة ما تأولناه؛ إذ لا يصح أن ينظروا إلا في مواضعهم، لا فيما بعد من البلاد"[1].

❁ واستقضاء عمر لشريح مشهور وقامت عليه أدلة أخر منها:

١- كثرة المكاتبات التي وقعت بين عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وشريح قاضيه على الكوفة، فقد وصلت هذه المكاتبات التي رواها وكيع محمد بن خلف في كتابه أخبار القضاة إلى ثنتين وعشرين رسالة[2].

وهذه المكاتبات لم تكن إلا تنفيذاً لأمر عمر ﷺ لشريح في رسالته لشريح في القضاء.

٢- صحة رسالة عمر ﷺ لشريح في القضاء، هذه الصحة التي شهد بها الإمام ابن حزم الظاهري، حين قال في "الإحكام" بعد ذكر تضعيف رسالة أبي موسى: "وإنما الذي صح عن عمر رسالته"[3] ثم ذكر رسالة عمر لشريح في القضاء.

وهذا التصحيح من الإمام ابن حزم يعد تصحيحًا غاليًا؛ لأنه كان ينكر القياس، والرسالة تحتوى على أمر بالاجتهاد من عمر ﷺ لشريح، ولكن الإمام ابن حزم أخذ من تخيير الإمام عمر ﷺ في نهاية الرسالة أنه يبطل القياس، وهذا غير صحيح، لأن الثابت أيضًا أن فعل أحد الأمرين المخير فيهما ليس مذمومًا، فيكون تخيير عمر لشريح من باب النصح بعدم التسرع في الفتيا والأحكام.

---

(١) انظر: عبقرية الإسلام في أصول الحكم، د. منير العجلاني، دار النفائس سنه ١٤٠٥هـ-١٩٨٨م، ط٢، ص٣٤٢.

(٢) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/١٩١-١٩٤).

(٣) انظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم الظاهري (٧/١٤٨).

وهذا الرسالة تحتوى في كل مقطع منها على لفظ (اقض) مما يدل أن شريحًا الذي وجهت له الرسالة كان قاضيًا لعمر.

obeikandl.com

(٥)

تصنيفهم في أقضياته

لقد اهتم العلماء بقضاء شريح اهتمامًا واسعًا، ويرجع هذا الاهتمام إلى عصر تلاميذ شريح، وهذا ما نستطيع أن نستشفه من كلام أحد الباحثين حيث قال:

"ويكاد يكون ثابتًا أن وكيعًا قد استخدم كتبًا عن شريح ترجع أول الأمر إلى تلاميذ شريح مثل: الشعبي، وإبراهيم النخعي، والحكم بن عتيبة"(١).

فهذا النص يوضح أن تلاميذ شريح اهتموا بجمع أقضياته حتى وصلت إلى وكيع، ومما يدل على هذا الاهتمام ما ذكر من أن الحسن بن عمارة روى عن الحكم بن عتيبة عشرة آلاف أقضية عن شريح وآخرين(٢).

وهذا الخبر، وإن كان لا يسلم مما قد يدخله الحسن بن عمارة على الحكم من أحاديث ليس من روايته، ومع ما في الرقم من مبالغة، تكشف عن اهتمام خاص من قبل الحكم بجمع أقضيات شريح.

واهتمام العلماء بأقضيات شريح لم يتوقف عند حد جمع تلاميذه لأقضياته، بل صنف العلماء في جمع هذه الأقضيات ما بين تصنيف مفرد لأقضياته وبين تصنيف يُخصص لشريح جزء منه، ومن هذه المصنفات التي حصلت على معلومات عنها:

---

(١) انظر: تاريخ التراث العربي، لفؤاد سزكين (م١جـ٣/١٧).

(٢) انظر: ميزان الاعتدال للذهبي (١/٥١٥).

١- **أقضية شريح لخلف بن القاسم المعروف بابن الدباغ** وهو كتاب ذكره الحميدي في جذوة المقتبس في ترجمة ابن الدباغ، ولكني لم أحصل على شيء أكثر من اسم الكتاب واسم مؤلفه، مع أني بذلت مجهودًا كبيرًا في التنقيب في فهارس المخطوطات في دار الكتب والهيئة المصرية للكتاب، ومعهد المخطوطات العربية، وفهارس المكتبة الأزهرية، وفهارس مكتبات ليدن بهولندا، وأيا صوفيًا بتركيا، وأسطنبول بتركيا، والمكتبات الملكية بالرباط، وسائر فهارس مكتبات الدول الغربية التي وقعت تحت يدي، فلم أجد شيئًا منه.

٢- أخبار القضاة لوكيع محمد بن خلف الذي خصص فيه صاحبه جزءًا لترجمة شريح فذكر فيه عدد كبيرًا من أقضيات شريح، وقسم هذه الترجمة على الرواة عن شريح من تلاميذه الأكثرين أمثال الشعبي والنخعي والحكم وابن سيرين"[(١)].

هذا بجانب عدد كبير من آثاره مذكورة وموزعه على أبواب الفقه في كتب كمصنفي عبد الرزاق وابن أبي شيبة، والسنن الكبرى للبيهقي ولذا نستطيع أن نستخلص مما سبق:

١- أن تلاميذ شريح اهتموا به اهتمامًا كبيرًا.

٢- أن هناك من صنف تصنيفًا مستقلا في جمع أقضيات شريح.

٣- أن من لم ينصف تصنيفًا مستقلا في أقضياته، ولا ذكرها مجموعه في جزء من كتابة، ذكرها متفرقة على أبواب الفقه في مصنفه.

---

(١) انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/١٨٩-٣٩٨).

وهذا كله يدل على حرص العلماء على جمع أقضيات شريح والتصنيف فيها، وهذا الأمر لم يكن إلا لما تحتوى عليه هذه الأقضيات من فقه وعلم بالقضاء وفنونه، مما جعل الإمام ابن عبد البر يقول فيه: "وهو أعلم الناس بالقضاء"[1].

(١) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٢/٢٥٧).

obeikandl.com